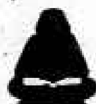
الرواية العالمية (٩)

شحاذون .. ومعتزون

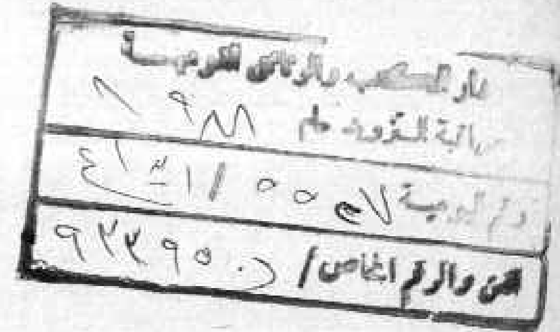
تأليف : ألبير قصيري

ترجمة وتقديم : محمود قاسم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨



هذه هى الترجمة الكاملة لرواية « شحاذون ومعتزون »

Mendiants et Orgueilleux, Albert Cossery, Julliard, 1979, France.

مقدمة

هذا الروائى وهذه الرواية

لم اتحمس لرواية واعجب بكاتب خلال السنوات الأخيرة مثلما تحمست لهذه الرواية التى اكتشفتها مصادفة فى احدى المكتبات .. فهى رواية لا يمكن الا أن تبهرك بعالمها .. منذ أول سطر حتى آخر كلمة .. بصدقها .. واصالتها .. الغريب أننى ما ان انتهيت من قراءة الفصل الأول حتى قررت أن أترجمها .. رواية مصرية مائة فى المائة . ومن المثير للدهشة أن هذا الكاتب غير معروف على خريطة الحركة الأدبية المصرية والعربية والسبب بسيط هو أن أحدا لم يترجم له أى من رواياته السبع ، فهى رواية مصرية وليست مصرية .. فكاتبها مصرى .. ويكتب كل رواياته عن مصر .. عن قاع المجتمع .. طبقات معينة من هذا المجتمع .. ولا نغالى ان قلنا انه سبق غيره من الأدباء المعروفين فى هذا المضمار .. والبرهان موجود فى هذه الرواية التى بين ايدينا . حيث يمكنك الحكم على هذه المقولة بعد الانتهاء من قراءة هذه الرواية .. ثم بقية روايات البير قصيرى .

وهذا الكاتب المصرى المعروف بدرجة أقل فى الغرب يشبهونه بهنرى ميللر أشهر من كتب أدبا مكشوفا فى القـرن العشرين .. فعالم البير قصيرى ينتمى وحده الى ما يكتبه ، وليس اكثر ..

والبير قصيرى هو أحد المصريين ، وهو أكثرهم مصرية من بين الذين يكتبون أدبهم مباشرة بلغة غير عربية .. فظلم بذلك نفسه ورواياته .. فالقارىء فى بلاده حرم من هذه الروايات .. وظل قاصرا على الأسماء القليلة المعروفة التى شكلت عقليته ولم تسمح بدخول أسماء جديدة ..

وقصيرى ينتمى الى جيل جورج شحادة واندريه شديد وجورج حنين . وكلهم كتبوا عن مصر .. بل وعن اعماق هذه البلاد بصورة تثير الدهشة .. مزجوا التاريخ بالمعاصرة بالواقع ..

ولد البيرى قصيرى فى مدينة القاهرة فى ٣ نوفمبر عام ١٩١٣ من أبوين مصريين .. التحق بالمدارس الفرنسية القاهرية . فكان احد ابناء الأسر التى لا تتحدث فيما بينها وفى حياتها الخاصة الا باللغة الفرنسية ولم يستطيعوا التعبير عن أدبهم باللغة العربية .. وفى عام ١٩٣٠ سافر لأول مرة الى باريس لاستكمال دراسته . وفى باريس كتب روايته الأولى « بشر منسيون » . التى ترجمت عام ١٩٤٦ الى اللغة العربية والانجليزية فى طبقات بسيطة محدودة ولا احد يعرف مصيرها حتى الآن . وقد دفعه نجاح هذه الرواية الى ان يسير فى درب الكاتب الأمريكى هنرى ميللر . وقد سعى البير الى الولايات المتحدة من خلال عمله فوق احدى السـفن التجارية المصرية التى جابت به انحاء العالم . أحب الكثير من الموانىء عـلى رأسها الاسكندرية وبورسـعيد ونيويورك والجزائر . وأقام فى بعض هذه المدن فترة من الوقت . لكنه أبدا ظل متعلقا ببلاده . ورغم ذلك فقد قـرر فى سبتمبر ١٩٤٥ ـ وبعـد أن انتهت الحرب ـ

الاقامة فى باريس . وهناك سعى الى نشر روايته « بشر منسيون » مرة أخرى . وقد ساعده نجاحها على الاقامة الدائمة فى باريس . وتوالت رواياته القليلة وهى : « منزل الموت الأكيد » التى طبعت بالفرنسية فى احدى مطابع القاهرة . و « شـحاذون معتزون » و « كسالى فى الوادى الخصيب » و « العنف والفشل » ثم « مؤامرة على بنك » . وهى جميعا عن مصر ..

وقد أخرجت السينما الفرنسية رواية «شحاذون ومتكابرون» فى فيلم سينمائى لم يلق نفس نجاح الرواية الى كتبها عام ١٩٥٧ وتدور أحداثها فى عام ١٩٣٩ ، أى قبل اندلاع الحـرب العالميـة الثانية بقليل . ولن نتناول الرواية فى هذه المقـدمة لكتبنـا باختصار أمام أربعة رجال يمثلون الطبقات الاجتماعية المصرية فى تلك الآونة .. ضابط الشرطة ابن الارستقراطيين ، وجوهر استاذ الجامعة الذى فضل ان يتخلى عن وظيفته ليعيش صعلوكا . والمناضل الموظف الكروى .. ويحيى الشاعر الصعلوك .. والذى يحبه أبناء الشعب لانه يعبر عنهم ..

البير قصيرى اكتشاف جديد قديم تقدمه للقارىء العربى ، ونأمل أن تتاح الفرصة لترجمة بقية رواياته .

محمود قاسم

شحاذون ومعتزون

- ١ -

استيقظ جوهر ، حلم أنه يغرق ، اســـتند على مرفقيه وتطلع حوله ، امتلأت عيناه بالريبة ، والرغبة فى النوم مرة أخرى · لـم يعد يحلم ، ولكن الواقع كان قريبا من حلمه حتى تردد لحظة · وأدرك أن هناك خطرا يهدده · تمتم : يا الهى ، لقـد حل الفيضان وسوف يغرق النهر كل شيء · لكنه لم يبد أى استعداد للهروب من الكارثة · بل على العكس فقد ظل غارقا فى نومه كان شيئا لم يحدث ·

استغرق كثيرا من الوقت كى يتماسك ، ود لو يدعك عينيه لكنه امتنع · فيداه مبللتان وملزوجتان · ينام فوق الأرض بملابس الخروج · فوق حاشية رقيقة من أوراق الصحف القديمة · لقـد علت المياه وغطت الأرض كلها حتى دخلت غرفته · تنساب نحوه فى هدوء كأنها كابوس · أحس جوهر كأنه يقف فوق جزيرة تحوطها الامواج العاتية ، فلا يجرؤ على الحركة · أغرقه انسياب هذه المياه

في ذهول شديد · استبد به خوف أن يستيقظ من نومه · لقد أدرك الآن ان فكرته عن الفيضان الذى يندفع في مجرى النهر ليست سوى خيالات · حاول ان يعرف من اين تأتى هذه المياه · وهو يدفعها بقدميه أدرك انها تتسرب من أسفل باب الغرفة المجاورة ·

ارتعد جوهر وهو يشعر بخوف شديد من البرد ، حاول ان ينهض · لكن النوم يثقل عليه · يشل أعضاءه ، يربطه بأربطة خفية · مسح يديه اللتين لم تبلا بعد في سترته · الآن يمكنه ان يدعك عينيه · شعر بالخوار والتعب · تطلع الى باب الغرفة المجاورة وهو يفكر : « لعلهم يمسحون البلاط · ومع هذا فشلوا في اغراقي » بدا له ان الجيران يتصرفون بطريقة تثير الغيظ · خاصة ان هذا الأمر لم يحدث من قبل · في هذا المنزل المتداعى الذى يقع في أحد الأحياء الشعبية · يسكنه قوم فقراء تربط الالفة فيما بينهم · لا يمسحون البلاط ابدا · لعلهم سكان جدد ماكرون يحاولون اثارة مشاعر أهل الحى ··

ظل جوهر جامد المشاعر · وكأن ذهولا استبد به · عليه ان يفعل شيئا كى يوقف هذا الفيضان · لكن ماذا يفعل ؟ من الأفضل ان ينتظر حدوث معجزة · فمثل هذه المواقف العابثة تقتضي حلا عن طريق قوى خارقة · أحس جوهر بخوار في قواه · انتظر بضع دقائق لكن شيئا لم يحدث ، ولا توجد قوة يمكنها ان تزحزحه من مكانه · انتصب فجأة · ظل واقفا ساكنا · وقد أصابه هذيان · كغريق تم انقاذه ، ثم وبتثاقل بالغ ، تقدم ناحية الأرض واتجه الى المقعد الوحيد الذى لا يوجد سواه في الغرفة · اللهم الا صندوقا مصنوعا من خشب البامبو · عليه موقد ، واناء قهوة وزجاجة مياه صالحة للشرب · فجوهر يعيش في أشد ظروف العيش شظفا · لقد استبعد من ذاكرته منذ زمن طويل أبسط فكرة عن الرفاهية ·

يكره ان تحوطه الاشياء · فالأشياء تخفى اسباب المأساة وتجسدها وتضاعف منها ·

المأساة التي لا تشوبها شائبة وتتولد حتما · يخشى ان تعود المأساة للظهور مرة أخرى لقد أصبحت الاشياء رمزا · وعليه ان يبعد عن عينيه كل المؤثرات · لذا أخلى جوهر غرفته من كل شيء وبدت له بالغة الجمال · وفيها يشعر بالتفاؤل والحرية · فالاثاث يثير حفيظته · لأنه لا يمكن أن يثير غريزته في التطلع نحو الرفاهية · لكن الناس وحدهم في أشكال جنونهم المختلفة يمكنهم التسرية عنه ·

ظل ساكنا برهة ، وهو يتطلع الى سريره الأرضى الذى لم يعد صالحا للاستعمال · لقد غرقت الجرائد القديمة التى يستخدمها كحاشية · وبدأت في الالتصاق بالأرض · أحس بالسعادة وهو يراها تتلف بسبب بساطتها الأولية · لم يعد هناك شيء · فقد مرت العاصفة بلا خسائر جسيمة · أحس جوهر أنه لا يزال صامدا· ولذا لن يسعى لمعالجة الموقف من جديد تذكر جيرانه المزعجين وتساءل عن أسباب هذه النظافة المريبة · ماذا يودون ؟ فالمنزل لا يحتمل أبدا مثل هذه المظاهر ، فالمنزل متهالك وقد ينهار بين لحظة وأخرى · وآنذاك سوف يتضرعون مبتهلين الى الله أن ينقذهم ·

حاول جوهر ان يفهم نوايا هؤلاء الجيران المزعجين ، عندما انفجرت صرخة ضخمة متدفقة من صدور عديدة ، صرخة قوية أشبه بليل سرمدى ، قادمة من الغرفة المجاورة · اهتزت لها جدران البيت القديم وشقت صدره ، أعقبها صمت حاد · ثم صراخات مدوية · لم يفهم جوهر على التو ماذا يعنى هذا الهذيان الشديد · فهناك في الغرفة المجاورة يوجد ميت · وما تلك المياه البيضاء المليئة برغاوى الصابون الا الغسول الذى غسلت به الجثة ·

في أول الأمر ، أحس بذهول تبعه شعور بالاشمئزاز . فجلس فوق المقعد وقد تقطعت انفاسه . نظر بنصف عين الى يديه المرتعدتين والمبللتين ، وملابسه التى لوثت بالموت . انتفض فجأة لينفض عنه اسباب الموت الماكرة . واسرع نحو القلة . لكن القلة خاوية ، ألقى جوهر نظرة مرتعدة ، وهو يفتش عن حنفية غير موجودة . كيف يغسل يديه ؟ أبقاهما متباعدتين وهو يتساءل عن المرض الذى اصاب جاره . لعله أصيب بمرض معد وهو يؤكد لنفسه متألما «الجراثيم !» بدا أن الخوف من الجراثيم شيء مضحك . اذا كان علينا أن نموت من الجراثيم لمتنا جميعا منذ وقت طويل . فالجراثيم تفقد فاعليتها في مثل هذا العالم . جلس فوق المقعد وظل يفكر طويلا في هذه المغامرة القريبة . اجتاز كوارثه العديدة بفضل تفاؤله واحساسه بأنه تخلص منها الى الابد . من جديد تأمل الأرض التى طالتها المياه، وورق الصحف المتناثرة والغرفة الخاوية ، فانفجرت ابتسامة غريبة من وجهه الهادىء النحيل .

في الغرفة المجاورة ارتفع النحيب الى أعلى درجة ، اتسعت صرخات النساء الى حد لم يعد يحتمله . عاكسة جوا من الدراما الدامية . ولا يمكن لأى قوى بشرية ان توقفه . بدا جوهر مفتونا بهذه الصرخات المرعبة . وشعر بالرغبة ان يفاجئهن بالصراخ مثلما يفعلن . ولكن هذه الصرخات تخرج من حناجر مأجورة . وتخترق أذنيه كأنها نداءات قادمة من عالم غريب ، لم يعرف فيها أى سمة من سمات الآدميين . هذا العالم المصنوع من الآلام المصطنعة الصارخة التى تملأ رأسه بضوضاء مسموعة تبعث على الدوار .

لقد استيقظ قبل موعده . ويريد ان ينام ثانية . لكن كيف ينام وخلف جداره هؤلاء الناديات الملعونات ؟ نساء لا يعرفن الرحمة . ارتعد جوهر . وقد انتابته رعشة باردة . انتظر طويلا ، ثم هب من مقعده وقرر الخروج .

أمسك طربوشه الذى كان يضعه فى ركن من الغرفة لم يصل اليها البلل . دسه فى رأسه : ثم أمسك عصاه وخرج الى السلم . كان باب جيرانه مفتوحا على مصراعيه . تردد جوهر طويلا وقد ارتسم الخوف على وجهه . فلأنه رجل اعتاد الحذر فهو يعرف ان النساء ستبكى عندما يشاهدن رجلا ، لذا هرول الى السلم دون تفكير وهو يلقى نظرة خفية على العديد من النساء البدينات اللائى اتشحن بملابس الحداد . وهن يجلسن داخل دائرة . يضربن صدورهن بأيديهن ويطلقن الصرخات الحادة . أحس جوهر أنه يكاد أن يغمى عليه . وان السلم سوف ينهار أسفل قدميه ولم يعرف كيف وجد نفسه فى الشارع .

الوقت ظهرا . شارع الأزهر الواسع يعج بحشد متزاحم يشغله شاغل . عاد جوهر الى لياقته . فهنا عالمه المألوف بين الجموع الغفيرة التى ترزح فوق أرض الشارع والرصيف رغم ان الطريق ملىء بالسيارات . والعربات الحنطور والكارو . والترام الذى يسير بسرعة . سطعت شمس الشتاء الواعية فوق الحشود . تطير الحداءات فى أعلى السماء، ثم تغوص — من وقت لآخر — وسط الجموع كى تعاود الطيران وقد امتلأت مناقيرها بقطع من اللحم . فلا يعيرها أحد انتباها . تقف النسوة امام محلات الاقمشة . يثرثرن لساعات اثناء شراء بعض المناديل المطبوعة . يتسلى بعض الأطفال وهم يشاكسون قادة السيارات حين يقفون أمام عرباتهم . فيطلق السائقون سبابهم ولعناتهم عليهم وعلى امهاتهم الغائبات . وقد ينتهى الأمر بدهم أحدهم . من المقاهى المتناثرة فى الشارع تبث أجهزة المذياع نفس الصوت الباكى لمطرب معروف . تصاحبه موسيقى حزينة . وكلمات تعبر عن آلامه وأحزانه حول قصة حب ضائع . تذكر جوهر جاره الميت . ونواح النسوة فأسرع الخطى .

لكن لا جدوى من الفرار من هذا الصوت الحزين الذى يملأ الشارع بأكمله .

توقف جوهر وقد تكتم احساسا بالفرح وسط هـذا المزيج المتنافر من الاصوات فى الشارع . فأمام حانوت خاو رأى عجوزا، يجلس متأنقا فوق مقعده . وقد أخذ يتطلع الى المارة بنظرة متعالية. يبدو غريب النظرات . فكر « هذا رجل ارتاح اليه » فهذا الحانوت الخاوى وهذا الرجل الذى لا يبيع شيئا يمثلا بالنسبة له أمرا منشودا لا يقدر بمال . فالحانوت ليس سوى ديكور ، وهو يفيده فى استقبال اصدقائه الذين يدعوهم لاحتساء القهوة . فهو رجل يتمتع بكياسة وكرم كبيرين . حياه جوهر كأنه يعرفه منذ أمد طويل . رد الرجل مبتسما وقد أدرك أنه معجب به . قال الرجل :

ـ شرفنى وتناول فنجان قهوة .

قال جوهر : شكرا ، فى مرة قادمة .

تبادلا النظرات لحظة بمودة بادية يحوطهما الدفء . ثم استكمل جوهر طريقه وسط الجموع . كان بالغ السعادة . نفس الشىء يحدث له دائما : هذه الدهشة ازاء البساطة الغامضة للحياة. فكل شىء مثير للسخرية . وليس عليه سوى ان ينظر حوله كى يقتنع . فالأمور التى حدثت له لم تكن مأساوية بالمرة . بدت المأساة ذات ثراء غامض . لم يسمع أحد عنها أو يتوقعها . تتحكم اللامبالاة فى مصير هؤلاء الناس . اكتست كل الاشياء الدنيئة بعلامات البراءة والنقاء . أحس جوهر بمشاعر التعاطف الانسانى فى كل خطوة يخطوها فى هذا الجمع الغفير .

عبرت عربة ترام صفراء الشارع محدثة ضجة شديدة . يحتفظ بتذكرته دوما لكى يشق لنفسه ممرا وسط الجمهور الذى

يسد منافذ الطريق . وقريبا من مطعم فول مدمس ، أثارت رائحة الطعام الرغبة فيه . توقف . اتكأ على عصاه . وانتظر قليلا ، لا . ليس الجوع هو السبب فليس للجوع أدنى تأثير عليه . يمكنه ان يعيش أياما على كسرة خبز . يعنى هذا الاضطراب شيئا آخر . سار بضع خطوات وأدرك طبيعة قلقه . الحشيش . لقد نسى الحشيش ، لخبطت وفاة جاره عاداته اليومية . فجوهر لا يستيقظ الا مع حلول الليل ، ولم يحن الوقت بعد لتعاطى المخدر . ومنقذه الوحيد هو يحيى الذى لا يمكن أن يلقاه الا فى المساء . ومن الصعب أن يقابله الآن . فليس ليحيى مسكن محدد . لأنه يعيش بلا مأوى .

كيف يمكنه أن يتماسك حتى يحين الليل ؟ تبعث هـذه الرؤية الجنون داخله ، سوف يعانى . ويعرف ذلك جيدا ، وقد استعد تماما لهذه المعاناة . فوضع فى جيبه كيسا ملفوفا . سحب منه قطعة من النعناع . وبدأ فى استحلابها ببطء ومهارة . ليس لها مذاق الحشيش . ولكن هذا الطعم لا يمكن أن يلهيه .

ابتسم وهو يرى عن بعد الشحاذ الذى لا يفتقده متقوقعا فى ركنه المألوف . نفس النداءات التى يرددها دائما . فى كل مرة يمر أمامه . اذا لم تكن مع جوهر نقودا ، يدور بينهما حديثا له أهمية خاصة ، فجوهر يعرفه منذ أمد طويل ويشعر بالسعادة حين يحادثه . انه شحاذ من نوع خاص ، ولا يردد أى شكوى ولا يعانى من أى عاهة . بل على العكس ، فهو يتمتع بصحة طيبة . جلبابه سليم ونظيف تقريبا . تختلف نظرته عن نظرات الشحاذ المحترف. يعجب به جوهر كثيرا . لأنه لم يحافظ على تقاليد الشحاذين . ولا يعير أحد هذا الشحاذ الأنيق أى اهتمام فوسط هـذا العالم العبثى . يبدو ما يفعله الشحاذ عملا مثل بقية الأعمال ، العمل الوحيد المقبول منطقيا ، من ناحية أخرى فهو يقبع فى نفس المكان

دائما · كأنه موظف يجلس وراء مكتبه · يلقى المارة ببعض القروش فى بعض الاحيان ينبه المحسن انه قد منحه قطعة معدنية زائفة · وقد يهدده أن يستدعى الشرطة · وتنتهى الأمور دائما لصالحه ·

توقف جوهر وحياه · رد الشحاذ : وعليكم السلام · رأيتك تأتى عن بعد ، فتأهبت للقائك ·

قال جوهر : آسف · فليست معى نقودا · فى المرة القادمة ·

ـ من أخبرك أننى أريد نقودا ؟

ـ ولم لا ؟ اعتقدت انك تحتقرنى ·

قال الشحاذ محتجا : أبعد عنك هذه الفكرة · فرؤيتك وحدها تسعدنى · لأننى أحب الحديث اليك · وحضورك يساوى كنـوز الدنيا ·

قال جوهر : أنت تبالغ · هل تسير الأمور على ما يرام ؟

ـ ربنا كبير ! من السعادة ان تكون موجودا · الم تسمع حكاية الانتخابات ؟

ـ لا · أنا لا أقرأ الصحف ·

ـ انها ليست فى الصحف · بل حكاها لى شخص ·

ـ حسنا · اسمعنى اياها ·

ـ لقد حدثت منذ أيام فى احدى القرى الصغيرة بالدلتـا · أثناء انتخابات العمودية · عندما فتح موظفو الحكومة الصناديق ، لاحظوا أن أغلب البطاقات تحمل اسم برغوث · ولم يكن الموظفون يعرفون هذا الاسم · فهو ليس فى قائمة أى حزب من الأحزاب · أصابهم الجنون · ورجعوا الى المصادر ليكتشفوا ان برغوث هـذا

هو اسم حمار يلقى احتراما كبيرا لرجاحة عقله فى القرية · وقد صوت أغلب السكان من أجله · ما رأيك فى هذه الحكاية ؟

شعر جوهر بارتياح وهو يفكر : يالهم من جهلاء · لقد فعلوا أفضل شيء منذ أن عرف الانسان الانتخابات · فتعرف هـؤلاء الفلاحين الضائعين فى أعماق قريتهم برهان ان الحالة أصبحت محالة · أحس جوهر بالاعجاب من هذه الحكاية وهو يتأمل الشحاذ برهة · حطت حدأة على الرصيف قريبا منهما · نقبت بمنقار باحثة عن شيء تخطفه وسط الزبالة · فلم تجد شيئا تأكله فعاودت الطيران ·

صاح جوهر : عجبا · وكيف انتهت الحكاية ·

ـ بالتأكيد لم تتم الانتخابات · فهم يريدون حمارا بأربعة أقدام بينما المرشح حمار بقدمين ·

ـ انت تستحق هدية لهذه القصة الرائعة التى أسعدتنى · ماذا أستطيع بالنسبة لك ؟

قال الشحاذ : تكفينى صداقتك ، كنت أعرف مسبقا انها ستعجبك ·

رد جوهر : معرفتك تشرفنى دوما ·· الى اللقاء ·

استدار جوهر وعرج داخل حارة هادئة · متجها الى مقهى المرايا · يعرف انه لن يقابل أحدا فى هذا السـاعة من النهار · ولكن يجب تحقيق المعجزات ·

تقع مقهى المرايا بين تقاطع حارتين · تشغل الجزء الأكبر فى مبنى من الطوب اللبن · ممنوع على العربات الكبيرة المرور منه · ولكن مسموح لعربات البـاعة الجائلين · تعلوه مظلة ضخمة من

الكتان أعلى الشرفة الواســعة فتبدو وكأنها سوق مغطى . علقت مرايا عديدة أحاطتهـــا اطارات ذهبية فى كل مكان . خاصة فى الواجهة . اشتهر مقهى المرايا بشايه الأخضر وارتفاع مســتوى زبائنه من أصــحاب السيارات ، ورجال الفكر والسواح الأجانب الذين يعشــقون الذوق المحلى . فى هذه الســاعة لم يكن المقهى مزدحما . اجتاز جوهر الشرفة وتسلل بين الموائد باحثا عن شخص يعرفه . يدخن بعض الأشــخاص الذين تبــدو عليهم الأهمية نرجيلة وهم ساكنين فى أماكنهم ، يلعب الآخرون الطـاولة ، أو يحتسون الشاى . هناك بعض بقايا الســجائر المتناثرة تنتظر جامعى الأعقاب الذين يقومون ويوزعون العمل فيما بينهم دون أن يخشوا أى مناقشة .

ـ السلام عليكم يا سيدى !

استدار جوهر . قام الكردى بنصــف قامة من فوق مقعده وهو يمد يده . سأله جوهر :

ـ كيف حالك ؟ ألم تذهب اليوم الى الوزارة ؟

ـ ذهبت ، ولـــكننى تركتها لتوى . لا أستطيع أن أعمــل يا سيدى . فأنا رجل بائس .

ـ ماذا بك يا ولدى ؟

قال الكردى بنبرة غامضة : جئت من هناك . أشد مرضــا من أى وقت آخر . تركتها نائمة ـ لاحظ أن جوهرا لايزال واقفا .

اجلس يا سيدى .

ـ جلس جوهر . نادى الكردى على النادل :

ـ ماذا تشرب ؟

رد جوهر : شايا .

قال الكردى : وأنا أيضا .

اطلق النادل الطلب بصوت متناغم وعال ، تطلع جوهر نحــو الكردى الذى يبدو الأسى والحزن البالغ على وجهــه . يحاول أن يجسد هذا الاحساس . شاب مهندم أنيق . يرتدى طربوشــا جديدا عيناه مشدودتان بخفة . وفمه شهوانى ملئ بالمرارة . يعمل موظفا بسيطا فى احدى الوزارات وهو عمل يتناقض مع رومانسيته ويمكن ملاحظة حبه للحق بسهولة . قال :

ـ لا أستطيع أن اتركهـــا على هذا الحال . يجب أن أفعل شيئا . انصــحنى والا انتحرت لم يرد جوهر على الفور . امتص النعناع الذى أنساه الحاح المخدر تماما .

ـ لماذا تنتحر ؟

ـ انت لا تفهم . يجب ان اخرجها من هذا الماخور . لاأستطيع أن أتركها تمارس الدعارة هكذا . مريضة هكذا خاصة أن الست أمينة ـ السافلة ـ لا تسمح لها حتى بالراحة عندما أفكر فى كل النقود التى جلبتها لها . يا للعار ! قلت لك سوف أنتحر .

لم يعر جوهر كلامه اهمية . فالكردى يبالغ دائما فيما يتعلق بمتاعبه . يبدو الآن كأنه يحمل هموم الدنيا . تنتابه هذه الحالة بين الحين والآخر كى يشعر بكرامته . فالكردى يتخيل أن الكرامة هى ضريبة الألم واليأس . ويشــعر ان كثرة قراءاته الغربيــة افسدت فكره .

تنصب متــاعب الكردى الحالية من خلال احدى العاهرات الشابات التى تعانى من مرض السل الرئوى في أحد المواخير القريبة . ماخور فقير يؤمه صغار الموظفين وأشقياء المدينة فى البداية التــقى بها الشاب مرتين أو ثلاث دون أن يعير الأمر انتباها . الا عندمــا

علم بمرضها . أحس ان المجتمع قاس عليها فاحبها بجنون . وأصر أن يخرجها من هذا الماخور وان ينقذها من موت محقق . لكنه لا يمتلك النقود الكافية لمواجهة هذا المرض الشرس . فظل يتخيل الحلول المثلى لحبه البائس . وفى هذه اللحظة قرر الانتحار . لكنه أدرك أن الانتحار ليس قراره النهائى . سأل :

– ماذا أفعل ؟

إسكت جوهر . بدا كأنه يتسلى . تشع عيناه بفرحة تكمن فى أعماق هذا الوجه الجامد . قال له بعد قليل :

– سأروى لك حكاية غريبة .

سأل الكردى : ما هى ؟

روى له جوهر حكاية الحمار برغوث الذى انتخب كعمدة لما اشتهر به من حكمة ودل هذا على حكمة فلاحى الدلتا . بدأ الكردى فى الابتسام . لكنه أدرك أن عليه الا يكون سعيدا كى يثبت لجوهر أن هناك أشياء جادة فى حياته . بدا محتدا وهو يقول :

– حرام . هذه أشياء همجية .

– أتعتقد أنهم همج ؟

– أجل . وتستغل الحكومة جهلهم .

– لكنهم أعطوا درسا بليغا لحكومتك .

قال الكردى غاضبا : أولا يا سيدى . ليست حكومتى . ثم ان لى أساليبى التى أناضل بها ضد هذه الضغوط . وسوف تكتشف يوما أن هناك أشياء جادة فى الحياة .

– أين ترى الأشياء الجادة يا بنى ؟

تطلع الكردى حوله بشكل غريزى ، وهو يفتش عن مظاهر العظمة . ولكنه رأى جامع أعقاب صغير ينحنى قريبا من المائدة كأنه يستمع لحديثهما . يلتقط الأعقاب بمهارة وتلقائية . أثار هذا المشهد الكردى فقام وأزاح المقعد كى يمكن له أن يتفحص الأرض . ورغم هذا لم يبتعد الطفل . بدا كأن حبلا ربطه بهما . قال وهو ينظر الى الطفل ساخرا .

– ألا تود أن تتناول معنا شايا ، يا سعادة البك ؟

– رد الطفل : شكرا . فقد شربت فى قهوة البسفور .

والبسفور مقهى فخم يؤمه علياء اليوم . ولم يطأه الكردى أبدا . قال غاضبا :

– هيا يا ابن الكلبة . و الا خنقتك .

غادر الطفل المكان مشمئزا . عندما ابتعد انفجر الكردى ضاحكا :

– هل سمعت يا سيدى . يا له من طفل خفيف الظل .

ابتسم جوهر وهو ينظر الى الشاب بنظرة تملأها السخرية . انه معجب بعبثه الذى لا حدود له . فهو شاب ثورى يؤمن بأفكار حول مستقبل الجماهير وحرية الشعوب . ومع هذا فهو بالغ العبث لا يهرب من هذا العالم الساخر ، له أسلوبه ضد القهر . ويؤلمه أنه مقهور هو والشعب . ما أن يترك لسجيته حتى يمارس الأمور السطحية .

يبدو الآن وكأنه أفرغ مرارته فى جامع الأعقاب الصغير الذى أنساه كل همومه . سعيد لأنه يجلس مع جوهر . فمعه تصبح الأشياء سهلة . وتخف صعوبات الحياة . وتكتسى الكوارث بلباس غريب . ويحس الكردى بطفولته تعود اليه .

- وماذا عن السفر يا سيدى ؟

- أفكر فيه يا ولدى .

قال الكردى بحرارة : عليك أن ترحل . فسيكون هذا رائعا .

عندما يحدثه عن السفر يغلق جوهر عينيه . كان حنينا يجيء من بعيد ويستولى على انتباهه . يحلم بالسفر الى سوريا . حلم يداعبه منذ زمن طويل . انه الوحيد الذى يمكنه القيام به . لأنه يربطه بمنابع نشوته . فالمخدرات غير ممنوعة فى سوريا . والحشيش ينبت بحريه فى الحقول . ويمكن للانسان أن يزرعه بنفسه . عرف جوهر هذه التفاصيل يوما . ومنذ ذلك الحين لم يكف عن الحلم بالسفر . يبدو هذا البلد المجاور أشبه بالفردوس . من الظلم أن يظل يعيش هنا . فعلى مسافة ساعات تكون المخدرات مباحة . فكر جوهر فى كل هذا الظلم . لا يمكن أن يغفر للقدر أنه ولد خلف هذه الحدود . يشعر أنه لن يسافر أبدا . ويحس أحيانا أنه يعيش من أجل هذه الفكرة . وسوريا بالنسبة له ليست سوى الحشائش الخضراء التى يستخرجون منها الحشيش . فى ذلك الزمن الصعب الذى استقال فيه من وظيفته . لم يكف هذا المشهد عن مداعبته . قال الكردى :

- أراك تزرع حقولا كبيرة بالحشيش .

قال جوهر : يجب أن أذهب . لكن ليس هذا بالأمر السهل .

- انها مسألة نقود يا سيدى . أود أن أسمع منك نصيحة .

قال جوهر : تحت أمرك .

تظاهر الكردى بالاهتمام وهو يقول :

- يجب أن أنقذ هذه الفتاة . حتى لو سرقت من أجلها . هل تسمعنى . حتى لو سرقت ما رأيك .

فكر جوهر ، أنه ليس ضد السرقة ، فكل الناس يسرقون . لكن هناك طرقا ووسائل لم تخطر ببال الكردى . انه يحب الشاب . ولا يود أن يراه فى السجن . سوف يفتقده . ثم ان الكردى لا يمكن أن يحمى نفسه فى السجن . سوف تموت روحه اذا فكر فى الحرية . رأى جوهر أن من الصعب أن يفسر له هذا . قال :

- يدهشنى موظف محترم مثلك .

قال الكردى : الموظف المحترم - مثلما تقول - قد كسر قلمه . هل تعرف أن رئيسى قد كسر قلمى وهو يقول : سيظلم هذا القلم الحكومى البائس معك يا عزيزى الكردى أفندى . أعتقد أن الآخرين يعملون خيرا معك وهأنت ترانى . موظفا بلا قلم .

قال جوهر : أهنئك على هذا .

على المائدة المجاورة . يجلس شيخان عجوزان فاقدا البصر تماما . يتحدثان عن القيمة الفنية لأحد المساجد الكبيرة . كان أحدهما يعامل الآخر كأنه يرى . فوضع هذا السباب الصارخ حدا للنقاش بينهما فتركا المائدة وذهب كل منهما الى حال سبيله . نسى الكردى فكرته فى أن يصبح لصا مثلما نسى أن ينتحر . كانت الساعة الثانية ولا يعرف أين يقضى الظهيرة :

- هل تتناول غداءك معى يا سيدى .

رد جوهر : لا ، أنا لا آكل فى مثل هذه الساعة . ثم اننى لست جوعانا . يجب أن يتعاطى المخدر . لم يعد يحتمل . وعليه أن يعثر على يحيى بأى طريقة .

- ألم تر يحيى اليوم ؟

- أجل ، رأيته عند الست أمينة عندما ذهبت اليوم لرؤية نايلة . كان نائما على الأريكة فى قاعة الانتظار . لم أشأ ايقاظه. أعتقد انه قضى الليل هناك .

ارتبك جوهر . عليه أن يلحق بيحيى قبل أن يستيقظ من نومه .

- يجب أن أتركك يا عزيزى الكردى . سنتقابل فى المساء.

قال الكردى وقد كسا لهجته بتعبير مثير للرثاء :

- كيف لك أن تتركنى فى حال بائس كهذا ؟

- معذرة . أنا مضطر . السلام عليكم !

عبر جوهر المقهى بخطى متعجلة سريعة . دعاه بعض الزبائن للجلوس معهم . ولكنه اعتذر لهم بلباقة . وبعد أن سار قليلا بصق النعناع وبدأ يشعر بالغثيان . ففكرة الحشيش القريب منه قد عششت فى رأسه مرة أخرى . وبخطوات رشيقة عبر الحارات التى تملأها المبانى التى تكاد أن تنهار .

(٣)

فجأة . هب عليه ضوء النهار قويا . أوقف انطلاقه كانت عيناه قد اعتادت ظلمة الشرفة المغطاة . الآن . يجد نفسه لا يتكيف أمام ضوء النهار القوى والمثير . يبدو له أشبه بسد منيع . فالحارة التى يسكن فيها ضيقة للغاية . ومكدسة بالقاذورات . والأشخاص الذين يرتكنون بجوار الحائط . أو يقفون بجوار الأبواب . ثابتين فى وقفتهم . ينشرون جمودهم لاثناء عزم المارة . على أبواب الأكواخ تمتلىء الأرض بأطفال صغار يعف الذباب على عيونهم . أشبه بحيوانات زاحفة صغيرة . وقد تقرفصت بعض النسوة وهن يغسلن ملابسهن فى طشوت من الصاج . وتقوم أخريات بطهو طعامهن فوق المواقد التى تصدر أصواتا أشبه بالقاطرة . بين الفينة والأخرى يلقين بالشتائم الرنانة لأطفالهن المزعجين .

أمام كل هذه الحواجز المتراكمة . يشعر جوهر بالدوار . ليس عليه سوى أن يخترق هذه الجموع الصماء الصعبة الاختراق

كسلسلة جبال عالية . وتدفعه حاجته الى الحشيش والخوف من فقدانه . فالأمر بالنسبة له مسـألة مصير . وبدون أن ينتظر . قفز . كما يفعل رجل ضرير وهو يستكمل طريقه دون أن يعير الصرخات واللعنات التي يتلقاها فى طريقه أهمية . يحس بالهواء ثقيلا كمن حوله . وان المخلفات الآدمية تسد عليه الطريق كأنها تتحرك غير مبالية . لم يكن الماخور بعيدا . ولكن يبدو لجوهر ان المسافة تزداد طولا . سار وكأنه نائم . تتكىء يده على عصاه . وتمتد الأخرى نحو الأمام كطفل يأخذ حذره . ناداه بائع الفجل باسمه وهو يدعو له ببعض الكلمات الطيبة . لم يعره جوهر انتباها . فأمامه الآن شيء آخر غير أكل الفجل . فقد أنسته هرولته للقاء يحيى كل عاداته اليومية .

بعد قليل . رأى المنزل من بعيد فأحس بنوع من الاطمئنان . فماخور الست أمينة ليس بالنسبة لجوهر مكانا للمتعة السهلة فهو لم يدخله قط كزبون . ولكنه يشغل وظيفة ذات أهمية كبيرة . فهو يصوغ خطابات الست أمينة . ويكتب أحيانا بعض الخطابات الغرامية للعاهرات الأميات . ويبدو هذا شيء يتعلق بالكرامة الانسانية . ورغم هذا المظهر المنحط فقد احتفظ دوما بدور المفكر المتكامل الذى حقق أمجاده فى الماضى . فى ذلك العهد الذى درس فيه التاريخ فى أكبر جامعة بالبلاد . ولكن فى تلك الآونة لم يكن هذا بالأمر المقبول ـ بكل هذا الجانب الأكاديمى ـ ولم تكن سببا لوجوده . ففى هذا الوسط تبدو الحياة قبيحة . فجوهر لم يخدع أحدا . ولا يؤمن بكذبات الفلاسفة الكبار التى كان يؤمن بها فى تلك الآونة . هذه الحرية الفكرية التى كانت تصيبه من مهنته الجديدة سببت له سعادة غامرة . سعادة رائعة لا حدود لها . ووجد نفسه يترك كل هذا العالم ليعمل فى هذا الماخور بأحد الأحياء الفقيرة مما سبب له متعة كبيرة . كم أبعده هذا عن المنازعات

وصراع البشر وافكارهم حول العقل والحياة . كل هذه الأفكار الكبرى التى أعجب بها طيله سنوات . تبدو له الآن اشبه بحشرات سامة . تجردممن سلطاته . فان قيام المرء بتعليم الحياة دون أن يعيشها أشبه بجريمة الجهل غير المرغوب فيه .

أما هذا العمل الذى قبل به فهو اقل عبودية . لا يتطلب مجهودا . لأن مثل هذه الخدمات التى تعد عالية القيمة . تجعل الست أمينة تمنحه من وقت لآخر قطعة معدنية فئة العشرة قروش والتى لا دخل له سواها . تكفيه كي يعيش . فهو يدفع مبلغا بسيطا كأجرة لغرفته . اما بالنسبة لطعامه . فان تجار الحى يشعرون بالسعادة . وهم يقدمون له ما يسد رمقه . فهم يحبون حديثه كثيرا . يعامله البعض كنبى . ينظرون اليه باحترام شديد لكن جوهر لم يعتمد ابدا على مثل هذه المجاملات . فهو لم يطلب شيئا أبدا . واذا كان عليه أن يوافق . فان ذلك يحدث بصورة لا تهين مشاعر هؤلاء الذين يقدمون له متطلباته .

توقف . وأطلق تنهيده .

يقع خلف هذا السور المغطى بنباتات كثيفة ـ التى تخفى كل ما يدور بالمنزل ـ ذلك الذى يوحي بالثراء . ذو واجهة ضيقة صفراء . يتكون من طابقين . وفناء صغير مبنى بالطوب اللبن . تملأه الركام التى تفصله عن الحارة . دفع جوهر الباب الحديدي . وأمسك عصاه من منتصفها . وضبط طربوشه فوق رأسه . ثم صعد السلم الذى يؤدى الى الدور الأرضى بكل الثقة التى منحه الله اياها . كان الباب مغلقا من الداخل . طرق جوهر مرتين بعصاه وهو يكاد يسمع دقات قلبه . لم يسمع شيئا كأنما المنزل خاو . خيم صمت ثقيل على نفس جوهر . ربما ليس هناك أحد لعل يحيى قد رحل منذ وقت طويل . انتابه قلق شديد . وتوقفت كل اعضاء جسمه كأنما اصابها شلل مميت ..

بعد فترة طويلة فتح الباب . تنهد جوهر . بدت الفتاة التى تقف أمامه أشبه بعروس من الحلوى المغلف بالورق المفضض . ترتدى قميصها من الحرير الوردى . ذا أكمام قصيرة . مطرز بخيوط خضراء وقد بدت علامات الاحمرار الشديدة وقد تغطت سواعدها بسوارات من الذهب . وقد اكسب شعرها الطويل لوجهها جمالا غريبا وحشيا . أشبه بوجوه تلك الرسومات الشعبية التى تغطى جدران المقاهى البلدية . يزيدها الكحل الذى تكسو به عينيها جمالا . يعرفها جوهر . فهى نزيلة جديدة . جاءت منذ فترة قصيرة من قريتها . تقترب من السادسة عشر من عمرها وتدعى أرنبة . منذ أن جاءت وهى محط أعجاب الجميع . ينتظرونها لساعات حتى تنتهى من عملها .

حياها جوهر فابتسمت . عندما انفرجت شفتاها بدت كفتاة صغيرة أكثر منها كامرأة . قالت :

ـ أنت . ادخل . لا يوجد أحد . ذهبت الست أمينة الى المدينة لعمل بعض المشتريات وأخذت البنات معها .

دخل جوهر الممر الذى يستعمل كقاعة انتظار . وجد نفسه ـ مرة أخرى ـ فى مكان ظليل وأحس بتراخ فى أعصابه المشدودة لم يسترح بعد تماما . فهو لم ير يحيى فى أى مكان . سألها :

ـ أليس يحيى هنا ؟

قالت الفتاة وهى تنظر حولها : كان نائما لتوه فوق الاريكة ثم خرج .

أحس جوهر بالاحباط . ود أن يسألها عما اذا كانت تعرف اين ذهب يحيى . ولكنه تراجع :

ـ سوف انتظره . لعله يرجع .

ـ انتظره . كما تشاء .

ـ هل أنت وحدك هنا ؟

ـ أجل . لم أذهب معهن لاننى وددت أن اغسل شعرى . أسفت اننى لم أذهب . فقد ركبن عربة حنطور .

بدت مترددة قليلا . ثم دخلت احدى الغرف التى تقع فى الممر . وأغلقت الباب خلفها بينما ظل جوهر وحيدا . ألقى نظرة حوله . وأخذ يفتش عن مقعد . فقد كانت قاعة الانتظار عارية الجدران . بسيطة الأثاث . فلا يوجد فيها سوى أريكة فوقها غطاء مزركش واربعة أو خمسة مقاعد فوتيل ومائدة عليها منفضة سجائر . انه نفس الديكور المتواضع للمواخير الموجودة فى الاحياء الشعبية . الان . وقد انفض المنزل من زبائنه . ومن أجوائه المثيرة . ومسرحه الظاهر . أحس جوهر بالاكتئاب . فاطلق تنهيدة واختار لنفسه مقعدا جلس فوقه . أهاج هذا الخواء الكئيب المنبعث فى الصالة جوهر بطريقة ملحوظة . فهو لم يأت قط فى مثل هذه الساعة من النهار . بدا كل شىء فى البيت غريبا وعدوانيا . وضع عصاه بين ساقيه . ودس قطعة من النعناع فى فمه وبدأ فى امتصاصها بلذة .

تقلص احساسه بالحشيش بشكل ملحوظ . وأحس بالراحة وأنه موجود فى نفس المكان الذى جاء اليه يحيى . فكر فيه بحنان صادق . فالارتباط الذى يربطه به ليس الحشيش وحده . يكن له شيئا من المودة أقرب بتعلق الفرد بالحياة . فيحيى شاعر بائس . يعيش حياته بلا سعادة أو مجد . يمارس الصعلكة وبوعى شديد . لقد دخل السجن عدة مرات بتهمة تعاطى المخدرات هناك حكايات رتيبة تتناولها الافواه للنيل منه . يشكون فى انه خائن أو أنه يعطى المعلومات للشرطة حول شركائه فى تعاطى

المخدرات . ألحقت به شهرته كمرشد أكبر الأذى بين المتعاطين . فأصبحوا يحاذرونه . لكن من الصعب معرفة الحقيقة في هـذا المضمار . ولم يحاول يحيى يوما ان يبرىء نفسه . مهما كان فقد ظلت الخيانة بالنسبة له مسألة مزاج وكرم أخلاق . فكل شيء سواء بالنسبة له . ولم يقلل هذا من شعوره نحوه يوما . فهو يتقبل كل التناقضات برجولة وتفاؤل . هو انسان بلا كرامة . وهذا لا يجعل الدنيا تكف عن الدوران . فجوهر يعجب به لأنه يشعر بلذة الحياة : الحياة بلا كرامة . فان يكن المرء حيا فهذا كاف لجلب السعادة .

ابتسم جوهر وهو يتذكر الكردي . حين يفرط في متاعبه ، ربما أكثر مما هي عليه في بحثه الدائم عن الكرامة الانسانية : « أهم شيء بالنسبة للانسان هو أن يفتش عن كرامته » . كل هؤلاء الناس الذين يبحثون عن كرامة ! أي كرامة ! فليس تاريخ البشرية سوى كابوس دموي طويل لغباءات من هذا النوع . كان وجود الانسان حيا ليس كرامة في حد ذاته : الموتى فقـط هم عديمو الكرامة وجوهر لا يحترم سوى الابطال الاحياء . وهؤلاء - بلا شك - يتحرجون فيما يتعلق بمسالة الكرامة .

ليست المشكلة بالنسبة له أن يعود الى غـرفته . فالنائحات لازلن يطلقن صرخاتهن . ورؤية هؤلاء النسوة المتوحشات فريسة لمشاعر مرتزقة تصيبه بالرعشة . يحس أن رأسه ثقيلة ومـن الصعب ان يحتفظ بعينيه مفتوحتين . فقد غرق المنزل في صمت قاتل دفع جوهر ان يغط في النوم لم تعد له رغبة في رؤية يحيى . ترك نفسه يغرق في النوم . أغلق عينيه وهو يحاول ايهام نفسـه بالتعب .

مرت فترة طويلة لدرجة أنه لم يسمع الفتاة تفتح الباب :

- هل نمت ؟

فتح جوهر عينيه . رأى أرتبه واقفة بلا حراك أمام عتبـة الباب . يرسم ضوء النهار المنساب عبر أقمشة رداءها خطوطا على جسدها العاري المنتصب . تردد جوهر لحظة . اعتقد أنه يحلم ، ثم قال :

- لا . وانما أستريح قليلا .

قالت الفتاة : أود أن تكتب لي خطابا .

تقدمت نحوه . منغمسة في ضوء الباب وكأنها تدفع النور المتخافت حولها . وكأنما أثار الظلام عريها . فدعك جوهر عينيه، اثاره هذا المشهد الغريب . وقفت الفتاة أمامه . وقد ارتسمت على شفتيها المزوجتين بأحمر الشفاه ابتسامة جذابة . بدا عليها انها فتاة تختلف تماما :

- لمن تريدين أن أكتب خطابا ؟

- الى عمي في البلدة ، لم اكتب اليه منذ جئت هنا . ولعل القلق أصابه .

آثر جوهر الصمت . ليست كتابة خطاب بالشيء السهل في هذا الوقت ، فهو غير قادر على التركيز ولا على أن يمسك قلما . وقد سبق أن رفض طلبا مماثلا من قبل . ظهـرت ارتبـه كي تقتـل شكوكه بأسلوبها الخاص وهي تقول :

- سوف اكافئك .

قال جوهر : سأكتب لك الخطاب . هل لديك ما يلزم ؟

قام بصعوبة . وتبعها الى غرفتهـا . انها غرفة عامرة غالية الثمن . بها سرير حديدي كبير ، واريكة . ومقعد ودولاب ذو

مجراة . شم البودر والروائح الغالية . غطى السرير بملاءة خضراء كستنائية . تبدو مستوية . فالعمل لم يبدأ بعد . اسرع جوهر واغلق النافذة ، فاعصابه تبدو ساكنة فى الظلام . وهذا هو الحل الأمثل للهروب من الألم . فتشت أرنية فى الدولاب عادت ومعها وريقة وقلما أعطتها لجوهر . ثم جلست على طرف السرير . وبدأت فى تأمله وقد انتابتها غريزة فضول غريبة .

ترك جوهر جسده يخور فوق الأريكة . ووضع عصاه قريبة منه ، ثم تأهب للكتابة ، انتظر ان تمليه ما تود كتابته . لكنها بدت كانها نسيت سبب حضوره . وان الأمر لا يعدو مزاحا . عادت اليها إبتسامة الفتاة الصغيرة المتقلبة .

هل تود أن ترى يحيى ؟

رد جوهر : أجل ، اريده فى مسألة عمل .

ـ هل الأمر عاجل ؟

ـ عاجل للغاية ، ولكن لا يهم . فحتما سيعود .

ـ أنا آسفه لانه ليس هنا . لعله سيتأخر .

لم يعد جوهر يحتمل أله . لقد أثارت كل حميته وهى تنطق باسم يحيى . سألها :

ـ هل تعرفينه جيدا ؟

ـ من ؟ يحيى . أنه كثيرا ما يسلينى . يبدو أنه شاعر كما يزعم .

ـ قال جوهر : انه شاعر كبير .

ـ غريبة ! حدثنى . هل يعتاد الشعراء طلب النقود من الفتيات ؟

اثار كلاهما انتباهه فجأة . لم يعرف أن يحيى ينتهج هذا الأسلوب . فهذا أمر جديد عليه .

ـ لماذا ؟ هل طلب منك نقودا .

ـ أجل . فقد حكى لى قصة تتعلق بامه . يبدو أنها ماتت وأنه فى حاجة لنقود من أجل مراسيم الدفن . قال أنه يحتفظ بالجثة منذ أسبوع . ما رأيك ؟

حاول جوهر ان يطلق ضحكته ـ رغم مأساوية الموقف ـ يعرف ان الحكاية ملفقة . وان قصص يحيى الخيالية يمكنها ان تبتز النقود من معجبيه . فعندما يتعلق الأمر بالنقود فعلى خياله أن يلتهب . خاصة اذا كان فى الأمر شراء حشيش .

ـ وهل أعطيتينه ؟

ـ ردت الفتاة : لست غبية ، فانا أرسل كل ما أكسب لعمى الذى ربانى . وقد حذرونى من النصابين .

قال جوهر : أنت فتاة جادة .

قالت الفتاة ضاحكة : هل تسخر منى ؟

ـ أبدا . أنا واضح .

فكر جوهر فى المشاعر المتقدة التى أوقظت فيه دائما ابعاد حياة يحيى والتى جعلته يغرق فى أدق تفاصيل حيوات المجانين . فوراء هذه القصة توجد حقيقة مؤلمة يصعب تجاهلها . لقد وصل يحيى الى حد أنه يريد توفير النقود فوق أشلاء أمه . وهذا لا يسبب له اى دهشة باى معيار . يتخيله يفعل اشياء أكثر جنونا . وهذا يعنى انه يبحث عن مصادره . فهو محظوظ لأنه يفتقد الحشيش دائما عنده . وجوهر يحسده لهذا الاكتشاف . ود جوهر أن

يغادر الغرفة · وان يهرول بحثا عن يحيى ، ولكنه لم يفعل شيئا ·

نظر تجاه الصغيرة ·

كانت جالسة على طرف السرير ، وقد باعدت بين ساقيها · لفت مئزرها حول جسدها ، وبرز صدرها الناهد عبر القماش الحريرى كأنه الرمان الناضج · تأملها جوهر بنظرة ثاقبة · متأملا جمال الفتاة · ترتسم ابتسامة تائهة على شفتيها المصبوغتين فتبدو كأنها تلقيه فى شباكها · اختنق جوهر · فاقتراب مثل هذا الجسد البض قد يشعل فيه رغبة بالغة الحدة · فمنذ زمن طويل لم يرغب فى امرأة · وقطع كل اتصالاته مع كل الخلق ·· وأصبحت حياته مكرسة للأشياء الأكثر بساطة ، لم تكن خاضعة يوما لقياس العواطف ، استمرت بلا ألم · أشبه بحلم صاف · لا حاجة للمخدر ، ومن جديد طرقت حاجته للمخدر داخل وعيه فأردته ضعيفا · كم من الوقت عليه أن ينتظر ؟ يشعر ان أعضاءه سوف تخونه · وستصبح رخوة بلا مقاومة · ويلزمه مجهود شاق كى يتغلب على نفسه وأن يسيطر على الرغبة التى تجمح فى جسده · وعليه أن يقتل شكوكه بسرعة ·

ـ متى طلب النقود ؟

ردت : هذا الصباح · تحادثنا معا قليلا · بدا حزينا وضعيفا ·

لم يساوره الشك · فيحيى لايغدو حزينا وضعيفا· الا عندما يفتقد المخدرات · انها الحالة الوحيدة التى يضعف فيها تفاؤله · ود جوهر أن يبعد اليأس عنه ، لكن الثقة التى أولاها ليحيى قد انقذته · وعلى كل فسوف يتصرف يحيى من أجل توفير مخدره ·

فله ألف طريقة للتصرف ، وجوهر يؤمن بالمعجزات · ليست المعجزات العظيمة · ولكنها المعجزات العادية البسيطة الحياتية والمخدرات هى أحدى المعجزات ·

ـ ماذا تودين أن أكتب الى عمك ؟

تخلت ارنبه عن ابتسامتها وسلوكها كفتاة صغيرة · وكست وجهها بملامح الجدية والعمق وقالت :

ما يكتب فى مثل هذه الحالات · قل له أننى على مايرام ، واننى معجبة بهذا المكان · وأعمل كثيرا · أعتقد أن هذا يكفى ·

أخفض جوهر رأسه وبدأ فى الكتابة · لكنه فى الحقيقة لم يستطع أن يكتب شيئا · وضع الوريقة فوق ركبتيه ، وأمسك القلم بأصابع مرتجفة · وأفعم أفكاره كى يجد جملة يبدأ بها · فهذا الرجل ليس عمها · كيف لعاهرة أن تكتب لعمها ؟ تردد جوهر بين صياغات عديدة · فهو لم يعرف قط كيف يمكن تبادل المشاعر العائلية ·

رفع رأسه مرة أخرى ونظر الى الفتاة · فالرغبة التى انتابته منذ لحظة لم تترك فيه أى أثر ، لقد فقد هذا الجسد المنساب فوق الفراش الأخضر بصورة مثيرة جاذبيته · واستولى عليه خاطر هو السوارات الذهبية التى تحوط ذراعى الفتاة العاريين ·

تمثل السوارات الذهبية بالنسبة له شعورا خاصا ، لم يبعد ناظريه عنها · وخلال بضع ثوان أحس بالاضطراب · وضع يده فوق جبهته وهو يرتجف · مقاوما كل رغباته ضد هذه الأفكار الكريهة التى تجثم عليه رغما عنه · حاول أن يطردها عن تفكيره بيأس واضح ولكنها قاومت كل ابتهالاته ، فهذا الذهب يساوى كمية لا بأس بها من المخدرات ، وتضمن له أن يعيش فى مزاج

كامل شهورا طويلة · ربما لسنوات · حاول جوهر ان يحدد كمية المخدرات التى يمكن أن يشتريها بمثل هذه الثروة ، لكن جسامة موقفه أشلته . فتوقف عن حساباته وعاوده حلم السفر · لم يعد أملا بعيدا ، لقد أصبح الآن أكثر قربا · أصبح السفر الى سوريا حقيقة ملموسة · تخيل أدق تفاصيل الرحلة الى بلاد الأحلام حيث ينمو الحشيش فى الحقول كالحشائش · غـزا الاغراء مخه بصور من العالم الآخر ، ورأى نفسه يرتمى على الفتاة وينزع منها سوارتها · فى نفس اللحظة التى حركت أرنبة ذراعيها وهى تهز الحلى الذهبية وسط صمت الغرفة · خرج فجاة من أحلامه وشرع فى الكتابة بكل حماس ·

انتاب أرنبة زهو · لم تشك لحظة فى موقف جوهر الغريب · تعرف انها حسناء · وبدا لها ارتباك الرجل بسبب تلك الرغبة التى ولدتها فيه · فتاة قروية وساذجة ، لا تعرف شيئا بالمرة ترى ان رغبة جوهر هى الشىء الوحيد لارضائه وعليها أن تكافئه ·

ظل جوهر يكتب وهو يحاول أن يتماسك · حتى العبارات التقليدية لم يستطع صياغتها انتابه قلق شديد · غرق لحظة فى محاولة عبثية لابعاد العنف عن ذهنه · فالعنف هو الشىء الوحيد الذى لا يخطر بباله · كيف حدث هذا ؟ أحس انه ليس جوهر · وان شخصا آخر يدفعه فى مغامرة لارتكاب حماقة تنخر فى نفسه ·

ـ لا تنس أن تخبره أننى سأرسل له نقودا قريبا ·

اختلج جوهر وهو لا يعيرها انتباها ، تسربت الفتاة قريبة منه فوق الأريكة · أربكه وجودها الى جواره · تملكه خوف وقال :

ـ أى نقود ؟

ـ ألا تعرف أى نقود ؟

ـ بالطبع · بالطبع · معذرة ، فأنا مرتبك قليلا ·

لم تتصور أرنبه أن سحرها يمكن أن يثير جنون رجل الى هذا الحد ، دفعها غرورها الى المزيد · فبعد الظهيرة أعلن عن نزهة ممتعة فى عربة حنطور مع الست أمينة وبنات الماخور · وكم أحست بالأسف لحظة · أما الآن فانها تجد هذا أفضل · اقتربت من جوهر وأحنت رأسها تحاول أن ترى الرسالة من أعلى كتفه ، داعبت وجنته متعمدة · وعندما ارتبكت كل أعضائه أدركت أنه بلغ النشوة · فاطلقت ضحكة طفولية مليئة بالعصبية ، وقالت :

ـ أنت تكتب جيدا ، اذن فقد ذهبت الى المدرسة ·

رد دون ان ينظر اليها : أجل ، وانت · الم تذهبى الى المدرسة ؟

قالت أرنبة بصوت ملء بالازدراء :

ـ لماذا أذهب الى المدرسة ؟ أنا غانية ·

قال جوهر : أنت على حق · لم أسمع كلاما مماثلا من قبل ·

ـ أنت تسخر دائما منى ، ولايهمك ، فأنت لطيف ·

اقترب الخطر أكثر · تملكه نوع من الذهول ازاء جاذبية السوارات الذهبية ، لم يعر لمسات الفتاة انتباها · فهذه السوارات تمثل بالنسبة له قيمة لا تقدر بثمن ، أنها تمثل المخدرات التى يفتقدها منذ الصباح ·

أنهى رسالته بسرعة وسألها : هل تعرفين التوقيع ؟

قالت : لا ، اكتب اسمى فقط . اسمى أرنبة .

قال جوهر : أعرف ، وهو اسم جميل .

وقع الرسالة . سأل الفتاة عن عنوان عمها ودونه على المظروف . لقد انتهى الآن ، ويستطيع ان يذهب ، ويهرب من هذا الاغراء الأبدى . قال :

ـ هاك الخطاب .

ـ أشكرك . احتفظ به معك . ضعه فى صندوق البريد . سأعطيك ثمن الطابع ..

لم يجرؤ على الحركة . لا يعرف أي رباط يربطه بالأريكة . يموت من الخوف وهو يسمع خشخشة السوارات ، وكأنما ارتبط وجوده بهذه الضجة المثيرة . شك لحظة ان الفتاة تتعمد هز ذراعيها . هل لاحظت شيئا ؟ لا . انها سوف تملأ الحى بصراخها . وهى ليست بالغة القوة كي تتسلى بمثل هذه اللعبة .

قامت أرنبة ، وسارت فى الغرفة . ثم انفجرت ضاحكة واقتربت من جوهر قائلة :

ـ يمكنك اذا شئت .

أحس أنه يغرق ، مثلما حدث فى حلم الصباح . وان فيضان النهر يغرقه فى أعماقه . حاول يائسا أن يسبح ، ان ينقذ شيئا من صفائه . لكن بلا جدوى . لاشىء يمكنه أن يتركه فى سلام . تملكته رغبة متوحشة ان يمتلك السوارات . مقاوما وعيه . ورأى ـ داخل هذيانه وخلف هذه السوارات ـ حقول الحشيش الواسعة

المنبسطة بلا نهاية تحت السماء . كانت الرؤية حادة وسريعة . توقف جوهر عن التنفس . فكر أنه سيرتكب جريمة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا سهلا . أجل عليه أن يقتل هذه الفتاة . لم ير أى وسيلة أخرى كي يخلصها من هذه السوارات . ملأه هذا اليقين بهدوء مخيف .

علا القلق وجه العاهرة الشابة . لم تعد تبتسم ولأول مرة ألقت على جوهر نظرة يملأها الشك وبدت أسباب هذه الرغبة التى لم تفهمها مثيرة للقلق . لكن لم يدم قلقها طويلا . فببطء شديد خلعت مئزرها وألقت بنفسها فوق المقعد . وبدت رائعة أمام عينى جوهر الزائغتين . اقتربت منه وأمسكت ذراعه وأرادت أن تجذبه .

ـ تعال . هيا ، بسرعة .

خلص جوهر نفسه منها ، بينما أصدرت السوارات ضجة أشبه بالرعد ، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان . انسال على جسده عرق بارد . ارتعد ، قام فجأة وسحب الفتاة ناحية السرير وهجم عليها . أطبق يديه على عنقها قبل ان تتمكن من الصراخ . فتحت عينيها الواسعتين اللتين اعترتهما دهشة غريبة . لم تفهم ماذا يحدث . لم يحتمل جوهر نظرتها . ضغط بأصابعه بكل ما يملك من قوى . مدت الفتاة ساقيها نحو الأمام فى حركة دفاع أخيرة . أغلق جوهر عينيه ، ران صمت طويل . ملىء بالظلمات . بينما استمر فى خنقها . حتى سقطت رأس الفتاة محدثة ضجة . لقد ماتت .

قام بصعوبة وهو يلهث . تمدد جسد أرنبة العارى بطول السرير فى وضع يثير الرثاء . عليه الآن أن يخرج السوارات . وهذا

هو أصعب مافى الأمر · رفع جوهر ذراع الفتاة وأمسك احدى السوارات · وأراد أن يزلفها من معصمها · ألا أنه أحس بصدمة · استرد وعيه فجأة وأطلق صرخة مليئة بالألم ·

سمع صوتا مكتوما · فالسوارات ليست سوى حلى مزيفة · انها ليست من ذهب · وجوهر يعرف ذلك دوما · ويمكن لأى طفل صغير أن يميزها · كيف ارتكب خطأ جسيما كهذا ؟ لم يجد تفسيرا · ربما ان هذه السوارات تساوى قروشا زهيدة اشترى بثمنها جريمة قتل ·

أنه الآن بالغ الهدوء · فقد تخلص تماما من الصدمة · ترك جثة الفتاة · واستعاد طربوشه الذى سقط فوق السرير ووضع الرسالة فى جيبه ثم توجه نحو الباب · كانت قاعة الانتظار خاوية ومظلمة تماما · يبدو أنه لم يأت أحد أثناء هذه الفترة · نزل جوهر السلم ببطء ، وخرج الى الحارة وقد بدا طبيعيا ، وحيا أحد المارة الذى لايعرفه بهزة بسيطة من رأسه ·

بعد كل هذه الحكاية · فهو لم يعثر بعد على يحيى · أين يختبىء يحيى اذن ؟ هذا هو السؤال الذى يؤرقه طويلا ·

(٣)

تسلل الضوء من مصباح الغاز حتى أطراف المائدة · حاول يحيى بعينيه الضعيفتين أن يمسك وجه أمه القابع فى الظلام ، لايرى منها سوى يديها العجفاوتين · وهى ترفى قميصا رجاليا ، عليها أن تنجز بعض العمل من أجل أسرة برجوازية فى المدينة · يشعر باهانة لأن أمه تمارس مثل هذا العمل ، خاصة ان هذه الاهانة تكسوها بالحزن · بالمهابة والجدية فى حركاتها · وكأنها تبدع عالما غامضا وأفضل · تبدو وكأنها ستنقذ بهذه الاكذوبة أسطورة البؤس الجدير بالوقار · يالها من خدعة . ماذا يدفعه هذا المساء كى ينظر الى وجه أمه · لعله يشبه وجهه · فتح عينيه باتساعهما · حملق فى هالة الضوء الساقطة من المصباح ، لا شىء ، ظل وجه أمه غامضا ، ينادى فى أعماقه ، حاول أن يتذكر ملامحها ، من الصعب بالنسبة له أن يحدد الصورة بالضبط · كأنها ثقب أسود لم ينظر اليه طيلة هذه السنوات · وقف عاجزا أمام ذاكرته التى أصابها عدم تام ، أراد أن يطلب منها أن تقترب قليلا ناحية الضوء ، ولكنه

تراجع · فهو لايود أن يزعجها · ينظر اليها بود « لعلها كانت بالغة الجمال · أما أنا فأشبه أبى » لا يذكر أباه جيدا · وهذا أيضا شيء غريب · هؤلاء الناس أتوا به الى الدنيا · وعاش معهم سنوات طويلة ، يبدو الآن أنه لم يراهما عن قرب ·

لماذا يهتم فى ذلك المساء بمسألة دمامته ، فهو لم يعتد النظر فى المرآة · ربما يخاف « هل بدأت أخاف فجأة » ضحك ساخرا مرة أخرى · الاقذار ! انهم يسخرون منى فى الصحف والمجلات الأدبية التى تصدر فى العاصمة · اصـــبح موضع سخرية كل الشرق المثقف · هؤلاء الصحفيون الأقذار لايتركونه فى حاله قط ، يمسون دائما شيئا خاصا فيه عندما يكتبون عن دمامته فى مقالاتهم القذرة · نشر أحد رسامى الكاريكاتور صورته تحت عنوان « القبح مجسدا » واجه يحيى هذا الهجوم بضعف وخوار · كأنه طفل صغير · هل يتصور هؤلاء الأغبياء انهم قادرون على وضعه داخل هذا الاطار ؟ انهم لا يعرفونه · فدمامته سر قوته ·

لعل هذا يمكن ان يدور فى كل مكان ، ولكن ليس أمام قاض فى محكمة · هناك وجد نفسه ضعيفا غير قادر على الدفاع عن نفسه · حتى محاموه المساكين عجزوا عن الدفاع عنـــه · فقدوا كرامتهـم أصابهم الخرس فجأة · تخبطوا فى دفاعهم دون أن ينظروا اليه · يالهم من عصابة أفاقين · يحتقرهم أكثر من الآخرين · عدا واحدا منهم ترك له ذكرى لاتنسى · رجل شجاع على خلق عال · يتكلم بوجهه كما يفعل العباقرة · وطوال ساعة لم يضحك القاضى خلالها · بدا كمن يكتم ضحكة وكأنه غير قادر على الفهم · انتهى المحـــامى وسط صمت مدهش · لم يصدق القاضى أذنيه ، نظر حوله كأنه خارج من حلم واسترد وعيه أخيرا ونطق بالحكم ·

كان الحكم هذه المرة أشد قسوة من المعتاد ، ثمانيه أشهر ، ولكن يحيى كان سعيدا وبدأ يتصرف كأن شيطانا مسه ·

لم يكن السجن سيئا بالنسبة لروحه القادرة على تقبل كل الظروف · كان نوعا من الراحة بعد تعب من حياة الصعلكة · يتذكر مكتبه وهو يجلس خلفه · هذه الوظيفة ذات الأهمية أتاحت له بعضا من حرية الحركة · يتصرف كمدير كبير · لا حدود لمقدرته · يستقبل التهانى · كان هذا شيئا رائعا ، لكنه سمح ليحيى ان يتسلى كثيرا · فبمجرد وصوله الى المبنى القبيح أثار قلق الناس · وسرعان ما قوبل بعاصفة من الفرحة · يملأ المكان بنكاته وروحه المرحة · حتى السجانون فقدوا عجرفتهـــم المعهـــودة وتركوه يتصرف كما يشاء ، أما مدير السجن ـ الذى طالما أعجب باشعاره ـ فقد كان يجد المتعة فى الحديث معه · استقبله فى مكتبه استقبال وزير · وهكذا كانت حياة يحيى فى السجن أشبه بحياته خارجه · وربما أفضل · كل ما يطلبه يجده · الطعام والراحة وربما أكثر · أصبحت الحرية مفهوما مجردا · حتى الحشيش لا يخشى شيئا من ناحيته فهو موجود فى ردهات السجن مثلما يحدث فى المدينة · ويمكن تداوله بألف وسيلة · خاصة النقود ·

أكسبته شهرته كشاعر مكانة مرموقة بين زملائه الأميين · فهو الذى زاوج المساجين فيما بينهم · لقد حمته دمامتـــه من الخطـــر الحقيقى · كان يجب أن يكون ضريرا حتى ينغمس فى الملذات · ولحسن الحظ لم يكن هناك ضرير فى السجن ·

من جديد ود أن يخترق سر هذا الوجـــه الذى يختفى فى الظل · يتلاشى كل شيء أمام نظره الضعيف · هل يبعد المصباح ؟ خلقت هذه النقطة المضيئة فيما بينهما صحراء لا حدود لها عرقص

قدميه فوق المقعد وأطلق آهة طفل مريض · لم يحدث تغيير على الجانب الآخر من المائدة فهى لم تتحرك حتى الآن ·

قال مغالبا نفسه :

ـ أماه ··

ظلت صامته ، لم يستطع أن يخلصها من المعاناة والتعب الذى انغمست فيهما ، استمرت فى رتق القميص · ياللعجوز المسكين التى تمارس عملا حقيرا لكنه شريف · يؤكد كل سلوكها ان هناك مهنا شريفة · كم أعطته دروسا أخلاقية · لكن من تتصوره ؟

ـ أمـــاه ·

لاحظ فجأة توقف الأصـابع · لاتزال ابرة مغروســـة فى القميص · يسيطر على الغرفة صـمت مميت · وتلزم الأم الصمت دوما ، يقال انها تخشى الكلام حتى لاتفقد سحرها · خرجت أخيرا من صمتها وقالت :

ـ ماذا ؟

ـ قولى لى · هل كنت جميلا وأنا صغير ؟

ياللسؤال الخبيث ! يعرف أنه يثير موضـوعا مرعبا · ماذا ستفعل ؟ هل تبكى أم ترد ؟ لايمكن أن يحدث الألم الذى يسببه · فهو لا يرى سوى يديها العجفاوتين . موضوعتين الآن على حافة المائدة · أراد أن يربكها أكثر ، تقدم بوجهه من ضوء المصباح كى يمكنـه أن ينزع ذلك القناع الآلامى البائس · انهـــا الآن غير قادرة على الحراك ، أمسكها ابتسم وهو يكشف أسنانه الطويلة التى أكسبت وجهه ملمحا وحشيا · فعلا · لا يوجد أفضل من اسعاد قلب أم ·

بدت كأنها تخرج من غفلة طويلة ، نظرت الى ابنهـــا بحـب

وحنان · رجل فى الخامسة والثلاثين أضاع حياته كطفل · أكثر وعيا ، وأكثر متعة من طفل · أبدت ترددا فى أن يحيى قد يتصرف برقة وهى تفكر : « عليها ان تبذل أقصى مابوسعها » لايشك لحظة فى ردها :

ـ ماذا يا أمى ؟

قالت : أجل · كنت جميلا ·

مستحيل · كيف تغيرت الى هذه الدرجة ؟

قالت : لم تتغير ·

لعلها مجنونة · حاول يحيى أن ينظر الى المرآة · آمن للحظة بالمعجزة التى شوهت وجهه · لا · الأمر أكثر بساطة من ذلك · عليه ان يعرف ان عينى أمه أشبه بعيون المها · وان هذا ليس وهما ولا شفقة · انه رد من أم حانية · أحس انها سعيدة بردها · وانها تؤمن به بكل صدق ·

ـ وأبى ؟

ـ ماذا عن أبيك ؟

ـ هل كان جميلا ؟

ـ كان أبوك رجلا نبيلا ·

ـ يالها من نكتة ·

غرق يحيى فى الفرح · كم من مرة قالت ان أباه كان رجلا شريفا · ومع ذلك فغلظتهما انهما أورثاه التعاسة · وريث أسرة كبيرة تملك عقارات · بذر نقوده فى القمـار وطقوس العربدة ·

حين مات لم يترك سوى الديون • كان يحيى فى تلك الآونة شابا صغيرا • لم يمسه موت الأب كثيرا • فهو لم يعرف الحياة التى عرفها أبوه • رجل شرقى حقا •

لم تكلمه أمه أبدا عنه • ترى ان هذا موضوع لا يليق الكلام فيه • فيجب الا يدان زوجها • آمنت ان معاناتها من زوجها نوع من القدر المحتوم تحسد عليه • لم يسمعها يحيى تقول عنه كلمة سيئة يوما • تردد أن زوجها رجل شريف • فكر : « تغفر الثروة كل شىء • تعجبها حماقاتى لأنهن يحببن أجواء المآسى » مسكينة • ليس لأحد الحق ان يكون سىء السلوك • وهذه البديهة هى الحقيقة الوحيدة على الأرض بالنسبة لها •

وكى تستمر ، فانها تمارس الآن هذا العمل المثير للخزى : ترفأ ملابس الأسر الثرية التى ترثى لحالها • مرت كل سنوات الكفاح المرير مع هذا الابن العاق بلا جدوى • ولم تغير من رأيها عن سلوك زوجها ألم يكن رجلا ثريا وقورا ؟ وهذا يغفر له كل شىء • هذا النوع من الوفاء صعب الوجود بالنسبة ليحيى • انه الشىء الوحيد الذى يجعلها تتعلق بالحياة • فذكرى الميت ليس لها هدف آخر سوى مزج هذا الاحترام الواجب بالرثاء •

فى هذه الغرفة التى تقع فى القبو ، ذات البلاط الكبير ، والتى غطت الرطوبة حوائطها تتمثل عفونة الطبقة البرجوازية رغم تفكك قطع الأثاث ، ويبدو الفقر ماثلا ، بين هذه الأشياء الغريبة الغارقة فى الظلال يوجد دولاب بجوار الحائط نجحت نقوشه فى انقاذه من التسوس ، يوحى الدولاب بجو من الغموض يثقل فوق يحيى • يفضل ان ينام فى الشارع بدلا من النوم فى هذا المسكن الفقير

الذى يندر بالوقار • يبدو ان الدولاب – المكوم فى الظلام – يهدده بارتفاع قامته • يرتعد يحيى فالجو بارد • ولا شىء يمكن أن يدفىء هذا القبو المثلج • حتى رشفة الكحول التى ارتشفها • أحس بالحزن يغزوه • انه يثقل عليه عندما يجىء لزيارة أمه • البارعة فى فن تقطير الحزن • تنسج الحزن مثلما ينسج العنكبوت خيوطه •

حمحم يحيى كى يتخلص من البرد • أحس بساقيه ترتعدان • وان شيئا ناعما يوخزه • أين يختفى القط ؟ انحنى كى يمسكه وضعه فوق ركبه وبدأ فى مداعبة شعره • ارتجف الحيوان الصغير • وهو ينظر اليه بحدة • تسلى يحيى يوما بأن أعطاه قطعة من الحشيش • ومن يومها • وكلما اتيحت له الفرصة يكرر نفس الشىء • انه بالتأكيد القط الوحيد الذى تناول مخدرات • بدأ فى العصبية وود لو خربش • وجد يحيى نفسه فى موقف حساس • فهو لا يملك سوى قطعة صغيرة من الحشيش • ولن يقتسمها مع القط • فلكل مداعبة حدودها • لكن كيف يجعله يفهم ؟

تخلص من القط ، ومن جديد نظر الى أمه • التى استسلمت لحلمها الداخلى • لعلها تحلم ان تعيش مع ابنها – ابن شريف ويعمل – يكمن وجودا فى كرامته واحترام القوانين • يأمل يحيى هذا الحلم ويمكنه أن يخمنه ويجسد صوره • فكر فى نفسه وعبقريته • اذا شكت يوما أنه سيبدأ فى ادخار النقود من أجل دفنها • حاول ان يبلغها بذلك • لكن هل تلعنه ؟ لم تمنحه هذا الامتياز يوما • لعنة أم ! لم يستطع يحيى أن يمنع نفسه من الضحك •

توقفت فجأة عن التطريز • علتها الدهشة وبدت كأنما صدمها شىء :

- أراك تضحك يابنى !

- هل تريدين أن أبكى ؟

- ألست خجولا من سخريتك من حالتى ؟

- أبدا يا أمى . لقد ضحكت من خاطرة جالت بى .

قالت ببرارة : لا أستطيع أن أفهم . كيف يمكنك ان تضحك فى هذا البيت البائس ؟

لايمكن أبدا أن تغفر له سخريته من حالتها . أنه لا يأخذ الأمور بجدية . أرادت أن تراه خجولا . يعيش حياته فى ملل . فالحال بائس . وكيف يسخر منه ؟

لقد حان الوقت ليذهب . بدأ الجو فى الاختناق . غاص فى مقعده . وانغمس أكثر فى الظلام ، ضحك ساخرا . فحتى الآن لم يقبل على الشىء الصعب بعد . قال بصوت أجهش :

- أمى !

فطالما أنها لاتود أن تراه يضحك . فعليه ان يبكى :

- ماذا تود أيضا ؟

- الا تعطينى خمسة قروش يا أمى ؟

أطلقت تنهيدة . وقالت :

- أيضا ! متى ستفهم اننى فقيرة ؟

- أعرف يا أمى !

- يبدو أنك لاتعرف .

- لا أعرف . لقد طلبت منك كثيرا .

- أيها المجنون . يا الهى . أقول ان أباك كان رجلا شريفا للغاية !

هذا شىء مثير للرثاء . لقد عرف يحيى هذه الحدوته ، وعليه ان يسمعها كاملة . وأن يفاوض حتى النهاية :

- اتركى أبى فى حاله . أريد هذه النقود .

- ليس معى سوى أجرة المنزل . اذا أردت أن تأكل . فهناك شوربة عدس .

يتناول هذا الحساء . أبدا من الأفضل ان يموت جوعا . عن تناول هذا الحساء الذى تطهوه أمه . والذى يعد أحسن ما تقدمه . تفوح منه الرائحة العفنة التى تنم عن حالهم . لايمكنه ان يأكل أبدا . يمكن ان يتحمل كل الاهانات . الا العدس . ثم ان الأكل لايهمه كثيرا . قال :

- أنه غير صالح للأكل

- ليس عندى فراخ . للأسف كى أقدمها لك .

لست أبالى بالفراخ يا أمى . كما اننى لست جوعانا .

تعرف أنه يتعاطى الحشيش . لكنها لا يمكن ان تصدق ، فهى تفضل ان تناقش أشياء عبثية مثل هذه الشوربة التى تريده ان يلتهمها عنوة . فيم تفكر . تصورت انه يريد النقود كى يشترى حشيشا . ذكره هذا بما حدث بعد الظهيرة . أصابته الرعشة . قابله شرطى فى الشارع . وسلب منه قطعة حشيش كبيرة بادعاء تفتيشه . لم يستطع الدفاع عن نفسه . هؤلاء الشرطة الملاعين . يأخذون كل هذا الحشيش ويغرقونه فى النهر ! غباء . عليهم اعادة بيعه فى السوق وبسعر أعلى .

من الواضح انه بعيدا عن الحشيش والطعام فالانسان فى حاجة الى بعض المصروف · فوضعه كمتطفل وصعلوك لا يمنع يحيى ان يكون مسرفا · بل على العكس ربما ورث عن أبيه حب المصروف الكبير · يجب ان يدفع بسخاء للآخرين · وان يساعد من هم أفقر منه · جوهر على سبيل المثال يعرف ان جوهر صفر اليدين دائما · وانه لايطلب شيئا أبدا ، مسألة كرامة مع بعض الفرق · يشعر ان عليه ان يساعده فى وضعه الراهن · وان هذه هى الطريقة الوحيدة التى يخفى بها دمامته الخلقية والجسدية · الوجود الحقيقى الذى يشعر فيه بالنغمة الصحيحة · يعامل البشر كما هم · فليس جوهر مصلحا ولا داعية · وهذه الخصوصية التى عرفها عنه لم يجدها فى أحد · فأغلب الناس يميل الى اسداء النصائح · بالضبط مثل أمه · أو فى الواقع فان أمه تشبه أغلب الناس ·

يخشى ان تسخر أمه منه ، لا · لم يكن شريرا معها · تدافع عنه بطريقتها وببعض المراعاة انها الأكثر قوة · ولاتوجد قوة فى الدنيا يمكن أن تزعزع من ايمانها بالامها · غارقة فى حزنها · لاتفهم أنه يمكن ان تضحك رغم كل التعقيدات الهائلة ·

يعرف انه سوف يقنعها باعطائه نقود · تحاول ان تجعله قريبا · منها · تؤمن بالعدوى · وان كل هذا الحب والعاطفة الأسرية ليس لها من هدف سوى ان تجذبه الى متطلبات الفقر · يا للمرأة المسكينة · لاتعرف انها ولدت صعلوكا متفائلا ·

يكفى هذا الآن · لقد منحها الوقت الكافى ·

ظلت بلا حراك فترة طويلة · تحاول ان تتماسك · ستفقده يوما · هذا الولد العاق · لكنه الرباط الوحيد الذى يربطها

بالأحياء · لن تنجح يوما ان تجعله يمشى فى الطريق الصحيح · ينزلق دائما من أصابعها · ويصعب الامساك به · سقط بين براثن الشيطان · الشيء الوحيد الذى تحتفظ به له هو ضحكته · هذه الضحكة الأشبه بسفينة وسط قربها · لاتستطيع ان تفهم هذا الاحساس أمام ما يبدو لها الكرامة الوحيدة فى العالم · وهو الامتثال للأحزان · تسكن فى هذا المكان الحقير منذ أمد طويل وهى تسمع ضحكاته أكثر رعبا من صرخة انسان ثورى · يمكن ان يتقبل الثورى · ولايمكن قبول السخرية ·

لم تشك أبدا أنه لا جدوى من كل هذه التضحيات · وان النقود هى أقل ما يمكن ان تقدمه لقد حرمت نفسها لأجله · لم يبق امامها سوى حياتها كى تمنحه اياها · لماذا لا يأخذ حياتها اذن ؟ واذا جاء يوما كى يقتلها فانها ستنتظره بكل ما تملك · قالت :

ـ اعتقد أنك ستقتلنى يوما ·

ـ لا ، يا أمى · يالها من فكرة ماساوية ! فالحياة أسهل من هذا · أعطنى النقود وسوف أذهب ، أؤكد لك أنه لا ماساة هناك · أين ترين المأساة ؟ انت الوحيدة التى تؤمنين ان الدنيا شىء جاد ، الدنيا مبهجة يا أمى · وعليك ان تخرجى وتتنزهى قليلا ·

نظرت اليه غير مندهشة ، كأنها سمعت كلاما مجنونا اعتادت سماعه منذ أمد طويل · ماذا يفعل · يا الهى · أطلقت تنهيدة وقامت مترددة · كأنها تستند على عكاز خفى · غاصت فى ظلام الغرفة · رآها يحيى بصعوبة · عادت بعد لحظة · ووضعت قطعة معدنية فوق المائدة ·

ـ خذ ، واشرب من دمى ·

يا للمرأة المتزمته . خسارة ان العالم لم يشهد مثـــل هذا المشهد التمثيلي . مشهد حقيقي يجمع بين طفل عاق وامه . يجعل هذه الدموع تتســاقط . ضحك يحيى وأمســك النقـود بين يديه ووضعها في جيبه . وقام ليخرج .

ـ سلام عليك يا أمي .

قالت : اجلس لتاكل هناك حساء لذيذ .

ـ لست جوعانا الليلة . لكنني أعدك أن أعود مرة أخرى لأصحبك الى مطعم فاخـــر . ثم تذهب الى ناد ليلي . الا يعجبك الذهاب الى ناد ليلي وتشـــاهدي الراقصـــات . سترين كم ان الحياة حلوة .

خرج من القبو . كأنه غريق خارج من حفرة مليئة بالطين . تنفس هواء المساء بمتعة ، أخيرا تحرر من وقاره القذر ! فكل شيء يدور في هذه الغرفة مزيف تماما ويكسب الفرحة حزنا . يا الهي . لماذا تقتصر السعادة على الأغنيـاء وحدهم ؟ ذلك خطأ اساسى فالسعادة موجودة حتى في السجن . لقد عرفها يحيى هناك أكثر من أى مكان آخر . رغم ان هذه الحقيقة البالغة البساطة أصبحت دافعا مريبا في عيني أمه ، انها لاترى فيه سوى الخسة والخمول . وتتحدى كل متاع الدنيا أليس هذا اهانة لذاتها ؟ . بالتأكيد توجد خلف هذه المتعة معــاناة حقيقية . لايحاول أن ينكرها . بــل انه بالغ الحساسية تجاهها . حتى اذا لم توظف نفســها في احتواء كل هذه الشكليات من الأفكار الكثيبة . فسوف تخفق فيــه كل مشاعر الحنان ، وستمنعه ان يحبها ببساطة . وستضطره أن يدافع عن نفسه ضد أشباح الفقر التى تعرفه منذ أمد طويل .

انسل يحيى عبر الشوارع ، وهو يحس ان هذه الآلام تطارده

بمشاعر مسمومة ، كمن يريد أن يبعد عن نفسه كل المبالاة ، تحت اضواء المصابيح الخافتة ، يبدو ظله القصير الحاد ومشيته المتعجلة وكأنها تصنع منه طيرا جارحا ضخما في هــذا الحى الذى يمثــل منطقة محايدة بين الأحياء الشعبية والأحياء الأفرنجيـــة . قليلا ما يمر بعض المارة . وكأنهم يلوذون بالفرار . يتناثرون في الليل . مثل الأشخاص الذين يراهم في الكوابيس . ابطأ يحيى خطاه وهو يفكر في الاتجاه الذى عليه ان يسلكه . عليه ان يقوم بلفة كبيرة كي يصل الى حى الأزهر دون ان يجتاز الحى الأفرنجي . على كل فعليه الا يغامر بالذهاب الى تلك الشوارع الواسعة المكتظة بالناس الخاوية تماما من أى حيــاة حقيقية . يكره هذه العمــارات الضخمة الباردة . التى تشبه المقابر الكبيرة . وهذه الواجهـــات المضاءة بطريقة تثير النفور . والتى تملأها تناقضات عديدة . ليست هناك واجهة واحدة ضرورية . فضلا انها سهلة الامداد . يجد نفسه دائما في مدينة غريبة تختلف عاداتها عن عادته . يلتفت الناس حول أنفسهم عند اول كلمة أو بادرة . وتنظم الشرطة كل شيء . يجب ان يظل بعيدا عن هذا الثراء الفاحش . ضد من ؟ وضد ماذا ؟ فهو لايرى أى الأسباب تدفع الى الخوف . لأنهم يغلقون أنفسهم في ثرائهم ، حتى لا يفكر أحد في سرقتهم .

سلك الطريق يمينا ، وهو يستكمل مسيرته تحت أضـــواء المصابيح .

يجب أن تقول ـ وهذه صفات نادرة في الشعراء ـ ان يحيى لايتصرف كأحد العباقرة ولكنه يرى أن العبقرى يفتقد البهجة ! وان عملية سوء الأخلاق العميقة ـ التى تثقل فوق أعظم المشاعر الانسانية ـ تبدو له أسوأ جريمة . فهو يحترم الكثير من الناس ليسوا شعراء ولا مفكرين ، ولا وزراء ، ولكنهم ببساطة يعيشون

في سعادة أبدية . فالقيمة الحقيقية عند يحيى تقاس بكمية السعادة التي يحصل عليها في كل وجود . كيف يمكن أن يكون المرء ذكيا وحزينا ؟ حتى أمام يدي الجلاد لا يمكن ليحيى سوى أن يكون مرحا . تبدو كل المواقف نفاقا والتصاقا بكرامة ضائعة . وهكذا تخرج أشعاره معبرة عن أحاسيس الشعب الذي يعيش بينه . لغة تتوارد فيها الأمزجة عالية رغم المآسي . فشهرته في المدينة أشبه بلاعب قرد أو قراقوز . يعتبر أن مهنته ليست لتسلية الجماهير . وانما للتعبير عنها . فهو لايجد في نفسه اي تشابه مع رجل الأدب من طرازه والذي يتمتع بنفس شهرته الخالدة . فهو لا يبحث عن المجد ولا الانجاب . لكن أشعار يحيى ممزوجة بالكلمات العارية ، يمكن أن يفهمها الصغير والكبير . يحسونها بغريزة لا تخيب عن الحياة التي يعيشونها .

ياله من شارع طويل مليء بالحوانيت المغلقة . والمصابيح العديدة كأنها في مسيرة جنائزية . أسرع الخطى . هرول ناحية قهوة المراياكي يتناول الشاي بالنعناع في هذا الجو البديع . فجأة أحس بنوع من التنوير . فتوقف . الساعة ! ترى كم الساعة الآن ؟ هل لديه الوقت لرؤية الفتاة ؟ كيف نساها ؟ ارتكبه جنون فأخذ يجرى .

لم يجد وسيلة يمكنه بها ان يعرف الوقت . في هذا الشارع الخاوي ، لا يوجد أحد أمامه . كاد يحيى أن يشعر باليأس . الا أنه رأى رجلا يخرج من باب عربة حنطور . يبدو رجلا أنيقا . يرتدي ملابسه على الطراز الأوربي . وقد حشر نفسه في معطف أسود ثقيل . ويبدو أنه من الذين يحملون الساعات .

تباطئ يحيى واقترب من الرجل :

ـ كم الساعة الآن . يا سعادة البك ؟

أخرج الرجل من جيبه ساعة كبيرة من الفضة . وقال :

ـ الساعة الا ربعا . في أي ساعة ستقل القطار ؟

قال يحيى : لا يوجد قطار . فلدى موعد مع فتاتي .

نظر الرجل الى يحيى . وهز رأسه مرات عديدة وهو يقول :

ـ ممكن يا عزيزي !

أكد يحيى : ممكن جدا .

ودون ان يشكر الرجل استكمل طريقه .

يا للرجل القذر ! انه يشك في انه على موعد مع فتاته . ولكن هذه هي الحقيقة تقريبا .

سوف يصل في الموعد . فهي لاتعود قط قبل السابعة . وقف على مسافة خطوات من المنزل . تصلب فوق الرصيف ، في ركن مظلم بين مصباحين . في هذا الشارع الأقل ازدحاما . لايزال به بعض الحوانيت المفتوحة ، يتحرك شخصان أو ثلاثة حاملين أكياسهم المليئة بالفاكهة . يخرج من المحلات المضاءة بعض الدخان المنبعث من اللحوم المشوية وقريبا منها يوجد مقهى ، استطاع يحيى أن يسمع أصوات دوائر الزد . وأصوات اللاعبين . انتظر ـ وقد ملأه التوتر ـ فتاته وهو يصوب عينيه تجاه المكان الذي ستجيء منه .

كان لقاؤهما الأول مجرد مصادفة بسيطة . في ذلك المساء . وقع يحيى في غمار المخدرات وهو يسلك نفس الطريق . عندما رآها تسير تحت نور المصابيح ذات طلعة بهية . تقابلت الأعين . أعتقد انه يقرأ في عينيها وعدا واحساسا لم يشعر به من قبل .

عينان مليئتان بالذكاء والغموض · وبدلا من ان يطلق تعليقا سخيفا · بادلها نفس النظرة · انها النظرة الوحيدة التى لم يشعر فيها بالعطف أو السخرية · ولكن بشعور غريزي أشبه بالرعب · لعلها ابنة موظف · ربما فى السادسة عشر تتلقى دروس بيانو · عرف يحيى ذلك من كراسات الموسيقى التى تحملها تحت ذراعيها · تتهادل كانها اميرة تزور الأحياء الشعبية · انها فعلا كراسات موسيقى · تبدو شيئا غريبا على هذا الحى · ففى مثل هذا الحى لا يتلقى أحد دروس البيانو الا فى النادر · دهش يحيى حين راى بعض أطفال الحى يطاردونها بتعليقاتهم ، انه طريقها بالتأكيد · أحس بالعرق يتصبب على جبينه · فى نفس المساء قرر أن يكتب قصيدة على شرفها ، وان يعطيها اياها بأسلوب رقيق وفريد ·

تصرف يحيى دوما بنفس الرقة · فهو عندما يراها قادمة يسير فى اتجاهها كى يبدو اللقاء مصادفة ولكن ، الا تفهم ذلك ؟ فى آخر مرة القت له بابتسامة منتظرة · كأنها فهمت مشاعره · اطمأن انه أكثر اقترابا منها · لم يعد يحيى يفكر ثانية فى هذا الأمر · « لاتبدى أى اشمئزاز لرؤيتى · يالها من فتاة شجاعة · أو ربما هى قصيرة النظر ؟ » وزيادة فى الحرص تعمد ان يكون اللقاء تحت المصباح حيث الضوء قوى · حتى لايخدعها · لكنها أعجبت بدمامته حتى لا تأتى فيما بعد وتروى له أنها لم تره جيدا في العتمة الشديدة · لذا فان يحيى يتعمد أن يجعلها تراه فى كل مرة · فيبدو الوجه واضحا تحت المصباح · لعلها تفكر انه يتصور نفسه جميلا وهو يكشف عن نفسه وسط الضوء ·

لقد تأخرت الفتاة · ربما عادت الى المنزل · أو أنه لا يوجد درس بيانو اليوم ؟ بدأ يحيى يحس بالملل من هذا الانتظار الطويل، قبع ساكنا فى الظلام ، وقد سلم نفسه للبرد ولنظرات المارة التى

تنظر اليه ــ ربما ــ كمن يتحين الفرصة · انه يخاطر بهذه الوقفة · توقفت أصوات الدوائر فى المقهى وارتفع خليط أصوات لم يستطع أن يحدد كنهها · مر بائع بطاطا وأخذ ينادى ممتدحا بضاعته ، يستخدم نفس العبارات المثيرة وكأنه يغازل بها امرأة مبتذلة · مر بعض الأشخاص قريبا من يحيى · فوقفوا لحظة · نظروا اليه ثم استكملوا طريقهم وهم يهزون الرؤوس ·

رآها قادمة من بعيد فاطلق تنهيدة ارتياح · فيمكن لهذه الوقفة فى حى متوسط ان تنتهى الى مالا يحمدعقباه ، أحس بالسعادة لأنها انتهت · تردد لحظة ، ثم بدأ فى المشى ، واضعا فى حسبانه أن يبدو اللقاء مصادفة تحت المصباح · واعيا أن يبرز دمامته · فهو لايؤمن بالاغراء · ومع ذلك تقدم وقد تورد وجهه كالعشاق محاولا ابراز كل دمامته كى يعمل على جذب اعجاب الفتاة ·

وأسفاه ! لقد نسى القصيدة التى نظمها · أين القصيدة ؟ فتش فى جيوبه بسرعة · أخرج بعض الأوراق ، أعتقد انه وجدها · تساءل : ربما ان هذا أفضل « ياخسارة فليس لديه وقت كى يتأكد منها · هبت عليه نسائمها » · كأنها دخان الحشيش · أكثر قربا ، وواقعية · ولكنه بعيد أيضا ·

دخلت فى دائرة الضوء المنبعث من المصباح · بخطى رشيقة ، رفعت رأسها وهى تنظر نحو الأمام ، ساد الشارع زلزال جاب الحى كله · تضع على رأسها غطاء رأس من القطيفة الزرقاء · وترتدى معطفا من نفس اللون · وقد لفت على وسطها حزاما من الجلد الأسود ·

زادت هذه الأناقة الأوربية من مشيتها سحرا · تضم كراسات الموسيقى تحت ذراعيها وقد كستها بمظهر التلميذة المجتهدة · ينم كل شئ فيها عن كبرياء لاحدود له · وازدراء تام له ·

سارت على مقربة من يحيي دون ان تغير من مسلكها · وتصنعت التجاهل التام تجاه يحيى الذى وقف تحت المصباح ، وقد كشف وجهه فى الضوء · اكتست شفتاه الغليظتان بابتسامة · لكن هذه الحركة لم يبد لها أى معنى عند الفتاة التى لم تعره انتباها ··

شعر يحيي بخيبة أمل · سار بضع خطوات . ثم استدار واسرع خلفها · أحس انه على استعداد لاقتراف أى جرم لو استدعى الأمر · كيف جرؤت ان تتجاهله ·

ـ لقد نسيت هذا يا آنسة ·

وقفت مبغوتة · وقد بدا عليها الخوف ·· فالموقف مربك بالنسبة لها · لم تكن تتصور ان لديه الشجاعة ليفعل هذا · بسطت يدها بتلقائية · فمد لها يحيي بالورقة المكتوب فيها القصيدة وابتعد على عجل دون ان يلتفت اليها ·

مر الأمر دون خطورة ، نجحت طريقته تماما · كيف ستتصرف بعد ان تقرأ القصيدة ؟ أحس بسعادة عميقة وهو يفكر كيف سيكون لقاؤه القادم بالفتاة ·

(٤)

دخل نور الدين ضابط الشرطة قاعة الانتظار واغلق باب الغرفة خلفه حيث يفحص الطبيب الشرعى جثة العاهرة القتيلة · ظل ساكتا برهة . وقد امتلأت نظراته الثاقبة بالثقة · تأمل الغرفة بدقة شديدة · وكأنه يبحث عن شئ يتعلق بالقاتل · هذا جزء من الروتين · فالقاتل يتواجد فى هذه الغرفة بالتأكيد · ارتعد الحاضرون لهذه النظرات الباردة ، ولمدة ثوان ساد صمت رهيب · الآن كل البنات فى المنزل وايضا ثلاثة زبائن أوقعتهم ظروفهم السيئة فى هذا الموقف · لايوجد أدنى سبب للشك فيهم ، يقفون بجوار الباب كالعادة يحرسهم أحد رجال الشرطة كرهائن · منذ أن عرفوا ان لا شيئا يمسهم ويكررون ان وراءهم أعمالهم وعليهم الذهاب · لكن شكواهم ضاعت سدى الريح مع هذا الضابط المتجهم الوجه الذى يقف بجوار باب المنزل · يتكلمون الآن فيما بينهم عن وضعهم الاجتماعي الحساس · ويرددون ان هذا الخطر كفيل باحداث فضيحة عالمية · قال أحدهم :

ـ سوف أبلغ صديقي الوزير ٠

صمت الآخران ، انهما على عجالة ، ولايجدان شيئا يبلغان به الوزير ٠ فكرا برعة في علاقتهما بالملك ، لكن هذا الأمر بدا لهما أقل أهمية للاتصال باحدى الشخصيات المرموقة ٠

الموقف البالغ الرثاء فعلا كان هو موقف الست أمينة ٠ جلست على طرف الأريكة وقد أسندت يدها على خدها ٠ فبدت أشبه باحدى الشهيرات ٠ تبكي بصوت أجش وهي تطلق تنهيدة من أعماقها ليكون الله شاهدها ٠

ـ كان يوما أسود ! ماذا جنيت ياربي ؟

بعد ان ألقى نور الدين العديد من النظرات حوله ـ وهذا من دواعي الروتين الغبي ـ سار نحوها بخطى ثابتة ، بدا متعبا ٠ وعلى استعداد لحبس كل الموجودين ٠ قال بلهجة حادة :

ـ كفى عن هذا التصنع يا امرأة ٠

سكتت الست أمينة فجأة ٠ مبتلعة تنهيداتها وانكمشت داخل نفسها ٠ فهي ليست امرأة غبية ٠ ولايمكنها ان تتجاوز قوة القانون ٠ لقد قدرت جسامة الموقف ٠ ففي هذه المرة تعرف ان بيتها سيغلق ٠ لأن حدوث جريمة فيه يعني نهايتها ٠

أكمل الضابط : اذن ٠ ماذا تعرفين عن هذه الحكاية ؟

ـ ماذا أقول لسعادتك ٠ بشرفي ، أنا لا أعرف شيئا خرجت بعد الظهر مع الفتيات لنقوم بعمل مشتروات ٠ وعندما عدت ذهبت الى غرفة أرنبه كي أطلب اليها أن تستعد فرأيتها ممدودة فوق السرير ٠ أطلقت صرخة فجاءت بقية البنات ليرين ما حدث ليحفظ الله سعادة البك من هول ما رأينا ٠ لقد تسربت مني دمائي ٠

ـ وهذا الذي يثيرني فيك يا امرأة ٠ اذن فقد تركت البيت وتجولت في المدينة ٠ مستحيل ، تصورتك ستقولين الحقيقة ٠

ـ انه يوم النزهة بالنسبة للبنات يجب أن يتنسمن الهواء ٠

ـ ولماذا لم تذهب أرنبة معكن ؟

ـ لا أعرف ياسعادة البك ٠ انها تجد راحة في ذلك ٠ لأنها مستجدة ٠ وأنا لا أحب لأحد أن يعارضني ٠ المهم بالنسبة لي أنها تعمل جيدا ٠

ـ ومتى عدتن ؟

ـ حوالي الساعة السادسة ٠

ـ الم يكن أحد في المنزل مع أرنبة ؟

ـ أبدا يا سعادة البك ٠ لم يكن هناك أحد

ربما زبون ٠

ـ انظر بنفسك يا سعادة البك ٠ فكل زبائني محترمين ولا يستطيعون قتل ذبابة ٠

ـ لكنك تستطيعين قتل ذبابة ! أيها الداعرة ٠ ولايدهشني أن تكوني القاتلة ٠

وازاء هذا الاتهام المباشر ، رفعت الست أمينة ذراعيها نحو السماء ٠ وأرادت أن تعود الى البكاء ٠ لكن الضابط أوقفها :

ـ أخبريني هل كنت تعرفين انها تخفي نقودا في غرفتها ؟

ـ لم يكن معها مال ٠ فأنا أحتفظ لها بكل مالها ٠

ـ هل أنت واثقة ؟

ـ طبعا يا سعادة البك !

ـ سأتولى أمرك فيما بعد . وأنصحك أن تلزمى الهدوء .

دعك الضابط يديه وبدا متعبا للغاية . فمنذ أن بدأ التحقيق وهو يشعر بالضيق مما يحدث . فالقتل لم يتم بدافع السرقة . والجريمة ليست بدافع الجنس . يقول تقرير الطبيب الشرعى ان جسد العاهرة ليس به أى علامات أو بقع جافة . لقد خنقت الفتاة بطريقة تقليدية . أمر غريب . وجد نور الدين نفسه ـ لأول مرة ـ فى موقف لايحسد عليه : أن يحل لغز جريمة بلا دافع . فجريمة كهذه تخفى فى طياتها أسباب غريبة . أسباب خفية ذكية لايمكن لشخص واحد ـ الا اذا كان ذا ثقافة أوربية ـ ان يفكر فى تنفيذ مثل هذه الجريمة . انهـــا من نوع الجرائم التى تنتشر فى كتب الغرب . جالت عينا الضابط القلقة ـ من جـديد ـ فى المكان . بحثا عن شخص بالغ الذكاء يمكن ان يقترف مثل هذه الجريمة . ولكن أى من هؤلاء لا يقدم اجابة شافية . فلا يمـكن لأى منهم أن يكون هذا القاتل الخيالى . أحس نور الدين أنه وحده مع الجريمة . اقترب من مقعد قريب من المائدة وجلس عاقدا ساقيه . ثم أشعل ســيجارة .

أنه عبد للروتين . عليه أن يسأل كل هؤلاء الناس . وهو يعرف الرد مسبقا ماذا يمكن أن يفعل بكل هؤلاء الذين يرتجفون ويخافون ضياع سمعتهم . أخفى نور الدين اشمئزازه ، وشعر ان الملل يتسرب الى روحه وترك ما يحدث حوله . وتذكـر مشكلته الخاصة . لقد استدعوه كى يتول هذه المهمة فى لحظة حساسة . يشعر أن عدم لقــائه بسمير يعد كارثة . لا يكف عن التفكير فيه . يعرف مدى حساســية الشاب . العذر أقبح كى يغفر له عـدم حضوره . سوف يضرب له موعد آخر . ترى هل يوافق ان يلتقيا

ثانية ؟ ينغص هذا السؤال على كل أنشطته ، فلا يشعر باى راحة . لكن عليه الا يكون شــاردا وهو يحقق فى جريمـــة مجهـــولة الدافع كهذه .

ورغـم مايبـــدو على الضابط نور الدين من صرامة الا أنه معجب مشدوه بالجمال . هذه المهنة التى تجبره ان يكون وســط حضيض المجتمع . قد غدت شيئا بشعا بالنسبة له . فهو يجد نفسه دائما غارقا فى أوحال حوارى الأحيـــاء الشعبية ، برفقـة المجرمين والمتشردين وهذا شىء يهدد روحه الآمنة ويجعله فى حال يرثى له . رغم أنه يؤمن برسالة هذه المهنة ويكن فى أعماقه ايمانا بدور رجل الشرطة . ولكنه يحب ان يتولى الجرائم النظيفة التى يرتكبها الأذكيـــاء من المجرمين . لكنه يقع دائمـــا مع الأفاقين والأقل تربية .

الا يشعر أى انســـان بالمرارة وهو يرى مثاليـاته موضع سخرية ؟ يالقسوة القدر ! أحس نور الدين بالاختناق . فك الزرار العلوى ليخلص عنقه من هذه الياقة القاتلة . شعر بالراحة وهو يفعل هذا الأمر الغريب . أحس أن عليه أن يجـرى الاستجواب رغما عنه . بالنسبة للبنات فلا يمسهن أى جرم . ومن غير المجـد أن يستجوبهن . لسن ســوى حيوانات غبية . وهن كفيلات أن يزدن من تعقيد مأموريته . ليس أمامه سوى الزبائن الثلاثة الذين يخرق التساؤل عيونهم . وكاجراء روتينى عادى أجـرى معهـــم استجوابا عن هويتهم وسيطلق سرحهم . فالقاتل ليس من بينهم بالتأكيد . اقتنع نور الدين شيئا فشيئا ـ ولعل هذا ما يوده فعلا ـ أن القاتل رجل آخر . طليعى الفكر وفوضوى . ومثل هذه الملابسات تعطى لمأموريته حيوية .

قال أحد الزبائن الثلاثة الذى يتباهى بصداقتـــه للوزير صارخا : لايمكنك أن تفعل هذا بى ! الا تعرف من أنا ؟

القى عليه نور الدين نظرة اشمئزاز · أنه يعرف هذا الطراز من البشر · ويكفيه مالديه من أمثاله · أمامه الآن مهمة عليـه أن ينتهى منها · فالمهمة الحقيقة لن تبـدأ الا غدا اذا حالفه الحظ سيقابل سمير قبل أن يحل الليل · عملت هذه الفكرة بثقليا فوق آلامه · ظل مكتئبا · مكفهر الوجه · يبدو صارما ·

فتح باب الغرفة التى يرقد فيها جســد العاهرة القتيلة . خرج منه رجل فى الخمسين من العمر شاحب الوجه طويل الأنف ، يرتدى طربوشا مجعدا يملأه التراب · أنه الباشكاتب :

ـ تحت أمرك ياسعادة البك ·

قال الضابط : اجلس هنا ·

جلس الباشــكاتب · وأخـــرج بعض الأوراق من حقيبتــه ووضعها فوق المائدة · ثم أمسك قلم كوبيــا مبرى من الطرفين · وقد تركت بعض البقع الزرقاء على شفتيه · سأل :

ـ بمن نبدأ ؟

أجــاب نور الدين : سننتظر قليلا · هل انتهى الطبيب الشرعى مع الجثة ؟

ـ أمامه وقت قصير ·

ـ أرجو ذلك ·

بعد هذا الحوار القصير · استعاد نور الدين وجهه الصارم . نفث دخان سيجارته وهو يتطلع نحو السقف · ويبـدو كأنه قد

قرر الهروب من عبوديته · ركز الجميع أنظارهم عليه · لقد وضعهم مثل هذا الموقف المتضارب الملئ بالتهديد فى وضع تحد · فهـــم لايعرفون ما سيقولونه ولا ما يضمره لهم · جلست الفتيات فوق الأريكة متكومات فى حمــاية الست أمينة · وقد تملكهن الخوف فيما يدور · ولكنهن يشعرن بالسعادة لحضورهن تحقيق فى جريمة تخصهن · فيملأهن الفضول · اما نايلة فهى الوحيدة التى أثرت فيها المأساة · فقد جعلها المرض اكثر حشاشـــة وحساسية من زميلاتها · فهى تقدح خيالها وتضع نفسها مكان القتيلة · تمنت أن تكون هى · تريد أن تموت مع هذا المرض الميئوس من الشفاء منه · من الأفضل بالنسبة لها ان تقتل بدلا من ان تعيش أشبه بهيكل عظمى · السيرة موت بطئ لايرحم · غلبتهـا أفكارها وقد علاها شحوب واضح · بين لحظة وأخرى يهزها سعال قوى · حاولت الفتاة الجالســة قريبــة منهـــا ـ وتدعى سليمة ـ أن تهدأها · أما عقيلة أصغر بنات الماخور فقد أبعدت وساوسها ولم تفكر سوى فى العمل فرغم وجود رجال الشرطة وجثة زميلتها الممددة فى الغرفة المجاورة · الا أنها لم تكف عن الغمز بعينيهـــا للزبائن الثـلاثة الموضوعين تحت الحراسة · لكنهم كانوا يفكرون فى أشياء أخرى · فقد ذكرتهم غمزات عقيلة وابتسامتها بواقعـــة ســوداء حــاولوا نسيانها · فمن الآن وصاعدا سيفكرون الف مرة قبل أن يدخلوا ماخورا آخر ·

أنهى الطبيب الشرعى مهمته · دخل قاعة الانتظار · وقد علا وجهه اكتئاب وبدت عيناه حمراوين كأنهما تشعا نيرانـا · وكأنه سكين · انه شاب أيضا · تأثر كثيرا لرؤية جثة أرنبـة العارية · سأل بصوت مخنوق أين يمكنه أن يغسل يديه · قالت الست أمينة :

- فى آخر الطرقة . أره الطريق يا زايد .

أشار زايد - الخادم - الذى كان يجلس فى أحد الأركان للطبيب بكل وقار . واختفى معه فى الممر .

أثار هذا الأمر انتباه الضابط فقال للست أمينة :

- أخبرينى يا امرأة . هل زايد قوادك ؟

صاحت الست أمينة : يالها من اهانة يا سيدى . انه يتولى أعمالى . ويقوم بخدمة البنات .

- أين كان بعد الظهيرة ؟

- كيف لى أن أعرف . أنه لا يأتى الا فى المساء . جاء بعد أن عدنا . ولد طيب يعمل فى خدمتى منذ سنوات وأنا أثق به .

سعت الست أمينة أن تجعله يشعر ان القاتل غريب عن منزلها . تعرف أنه لم يبق أمامه سوى ان يهاجم تجارتها .

- سوف أتولاه فيما بعد . أخبريه الا يغادر المكان . وأنت مسئولة عن هذا .

تنهدت الست أمينة وقالت : ليحفظنا الله . هل اعد لك قهوة ياسعادة البك ؟

- لسنا هنا لشرب القهوة يا امرأة ! يبدو أنك لاتقدرين جسامة ما حدث فى بيتك . دعينى أخبرك أن نهايتك اقتربت .

قالت أمينة متوسلة : ارحمنى يا سعادة البك ؟ ماذا أفعل . اقتلنى اذن !

- كفاك وهذه الملهاة ! واكرر عليك لآخر مرة . لست هنا لأشرب قهوة ولا لاسمع هذه الأصوات المزعجة .

ود أن يخبرها أنه هنا لمعرفة القاتل . ولكن بدا هذا أمرا ساذجا فلم يقله لقد تصرف نور الدين كطفل صغير غيور على أسراره فعليه الا يجعل أحدا يكتشف رأيه فى أن القاتل ليس فى المنزل . وانه ليس من أبناء الأحياء الشعبية . تنخر فى رأسه فكرة ان القاتل غريب عن هؤلاء « الهمج » رغم أنه يدرك أن يقينه مبنى على تحليل نفسى ومصادفة . أحس أنه ينزلق فوق منحدر خطير لايعرف أين سيأخذه . عليه الا يتبع الروتين التقليدى . عليه القبض على القاتل . لكن كيف ؟ لو سرق شيئا لأقتفى أثره . ولكن هذا القاتل اللعين لم يسرق شيئا . قتل واختفى . ترى ما السبب ؟ ربما بدافع الانتقام ! عليه أن يعرف شيئا عن حياة القتيلة . هذه العاهرة الصغيرة الساحرة الجمال ، عليه أن يجد أثرا لبعض الرجال الذين يعرفونها . وعما اذا كان لها عشيق . لم يطلق نور الدين خيالاته كثيرا . فهاهو فى مهمة داخل مجتمع متمرد اعتاد العنف ، ملأته التجربة . ويتصرف ببرود . ورغم هذا عليه أن يتعرف على قاتل العاهرة .

كيف يمكن أن يخرج نفسه من هذه المحنة ؟ فغثاثة المهام المائلة تجعله يشعر دائما بالودنية ، والاحباط . وقد يكون فى نهاية الأمر ظالما ومصابا بالمرارة . طالما أنه فى خدمة القانون . عليه ان يجعل القانون مهابا يعاقب المذنب . للأسف فان احساسه بهذه القوة بدأ ينخر فيه . وقد يدفعه ان يصبح أقل ايمانا بالسبب الذى يعمل من أجله . وهذا أمر جسيم .

جاهد أن يغلب يأسه . واستعد لبدء التحقيق .

فى هذه اللحظة طرق الباب بشدة . ران صمت طويل . أشار نور الدين للشرطى ان يفتح الباب .

عبر الكردى الممر بخطى مرحة . وقد اكتسى وجهه بابتسامة تعبر عن السعادة لكنه توقف كأنما أخطأ المكان . اتسعت حدقتاه من الدهشة وهو يرى هذا الجمع الذى أمامه . كف عن الابتسام . ود أن يقول شيئا . ربما يعتذر . لكن الشرطى لم يمهله الفرصة للكلام . أمسكه من ذراعه . ودفعه أمام الضابط قائلا :

ـ زبون جديد ، ياسعادة البك .

قال الضابط موجها كلامه للست أمينة : أرى منزلك عامر !

أيقظت سخريته الشجون . فمنزلها عامر . وليست فى حاجة ان تؤكد له ذلك . وهى الآن معرضة ان تفقد كل هذا نتيجة لجريمة ارتكبها قاتل داعر . ومن جديد بدأت تبكى :

ـ لماذا تلاحقنى المصائب . أنا امرأة غلبانة .

أمرها نور الدين : اسكتى والا أمرت بحبسك : لنر هذا الشاب .

قال الكردى : أنا .

انها الكلمة الوحيدة التى تمكن من النطق بها . لم يفهم حتى الآن أى مصيدة وقع فيها . فوجوده فى مثل هذا المكان أشبه بحلم . دعابة سخيفة . دعك عينيه كى يرى جيدا ماذا يفعل هذا الضابط هنا ؟ بدأ يكتشف الأمور . انها « كبسة » .. كاد أن يضحك قال نور الدين :

ـ أجل . أنت .

تأكد الكردى أن الأمر جسيم . تمالك وعيه ، واختفت الابتسامة . اكتست شفتاه بابتسامة بلهاء ساخرة مليئة بالاهانة .

نظر اليه الضابط بحدة . سوف يوسع هذا الوافد الجديد من دائرة التحقيق . ونور الدين لايريد شيئا من هذا القبيل . لاحظ أن هذا أول شخص يستحق الاحترام . يختلط بهذا الوسط الغريب . فكر أن يقبض عليه . سأله الكردى :

ـ ماذا حدث ؟

ـ سأشرح لك كل شىء . اجلس وكن هادئا .

هز الكردى كتفيه . وعدل طربوشه ونظر ناحية الأريكة . تلفتت الفتيات حول الست أمينة وقد غلفهن الصمت . عندما رأى نايلة بوجهها الشاحب الذى تملأه الدموع أسرع نحوها . رأى فى نفسه رجل الحق الذى عليه ان ينقذها من قبضة الشرطة .

ـ افسحوا لى مكانا .

أفسحت الفتيات له مكانا . جلس الكردى قريبا من نايلة . أمسك يدها وضمها اليه . لكن هذا الموقف المؤثر لم يسكن الراحة فى الفتاة . بل ان حضور حبيبها أثقل عليها أحزانها . فهى تعتز بكرامتها . تعى تماما أن الكردى يمكنه ان يخلصها . تتساءل أحيانا هل هى صادقة نحوه . فكلما أخبرها عن رغبته فى ان تترك هذه الحياة تتأزم علاقتهما . سأل الكردى :

ـ قلن لى يابنات . على شرف من هذه الحملة ؟

قالت سليمة : ليست حملة . لكن أرنبة قتلت .

ـ قتلت ! كيف ، وأين ؟

ـ وجدت بعد الظهر مخنوقة فى سريرها .

جلس الكردى مذهولا بعد أن سمع عن الجريمة . ثم تنبهت

مشاعره · وأدرك جسامة الأمر · تأمل نايلة ولمسها كأنما يؤكد لها وجوده وشعر ان قلبه تملأه الشفقة ·

ربما كانت هى ·· ملأته هذه الفكرة بالألم فجاهد دموعه · لكن هذا لم يدم طويـلا · نظر الى الضابط والمحضر والشرطيين · انهم يمثلون العدالة · ملأ الفضـــول رغبته · ويفكر أن الأمر قد لايتعدى التسلية ·

ـ هل قبضوا على القاتل ؟

ردت نايلة : لا

قال الكردى : يالها من قصة مزعجة · فقد اعتقدت انها أنت ·

ـ ليتها أنا · ساعتها لن يبكى أحد على ·

ـ لاتقولى هذا الكلام · لن أتركك وحدك أبدا ياحبيبتى · ساكون معك بدءا من اليوم ·

ـ يا الهى · لاتقل هذا الكلام · ووظيفتك ؟

ـ الوظيفة · سأطوح بها الى الشيطان · لقد وجدت وسيلة أخرى لكسب الرزق · سأحدثك عنها فيما بعد ·

ـ خرج الطبيب الشرعى ، بدا أقل تأثرا · وكأنه وقع تحت تأثير مخدر · سأله الضابط :

ـ الا من جديد ؟

قال الطبيب : الآن لايوجد · غدا سأرســل لك تقريرا بعد التشريح · الآن سوف أذهب · سلام عليكم ·

قالت الست أمينة : الا يود السيد الطبيب أن يتناول كوب شاى · لايمكن أن تذهب هكذا · بالله عليك شرفنا ·

رد الطبيب الشرعى : شـــكرا جزيلا · فأنا على عجالة من أمرى · فى مرة قادمة ·

انفجر الضابط قائلا : قولى يا امرأة · متى ستفهمين أننا لسنا فى زيارة ماخورك · أخبرتك ان تسكتى ·

ـ فهمت ياسعادة البك · أنا لا أفعل سوى الواجب · أريد أن أكون ودودة ·

قال الكاتب : سوف نبدأ الاستجواب ·

ألقى نور الدين عليه نظرة حادة لم يفهمها · أى استجواب ؟ لقد نسى تماما هذه الملهاة السخيفة · ومع هذا عليه أن يقوم بها · فالروتين يضطره الى ذلك · وهذا الباشـكاتب الذى تعلوه الأتربة يسبب له وجعا فى رأسه · تمنى نور الدين ان يكون معه باشكاتب شاب · فمثل هذا الرجل العجوز لايمكن للعدالة ان تأخذ مجراها ·

أشار الى أحد الزبائن ان يقترب · انه ذلك الذى يدعى أنه صديق الوزير · قام ومشى تجـــاه الضابط بخطى متثاقلة وهو يزمجر بكلمات غير مفهومة · يبـدو بليد الذهن · يرتدى بدلة متسخة · وقد تجعد طربوشه القذر · وقف أمام الضابط منفوشا وصـــاح :

ـ لايمكنك أن تفعل هذا · أنت لاتعرف من أنا ·

قال نور الدين بهدوء : أسكت ·

ـ قلت لك الا تعرف من أنا ؟

ـ وأنا قلت لك اسكت · رد فقط عندما أسألك ·

ـ أسكت ، أبدا · سوف تندم عندما تعرف من أنا ·

دق على صدره كأنه يشير الى هويته ·

سأله نور الدين : حسنا · قل لى من أنت ؟

تنهد الرجل بعمق وقال بصوت يملأه الفخر :

ـ أنا محصـــل ·

أثنـــاء هذا كان الكردى يتطلع الى ما يحدث دون ان يتنبه ان هذا يمكن ان يحدث له · يرفض ان يفهم ما يحدث أمامه ويتردد فى ان يضحك · لاحت فجأة أمام عينيه سـخافة الموقف فانفجر ضاحكا ·

توقف صديق الوزير · بدا خائفا كأنما ضحك الكردى يمس نبل أخلاقه · وضعته هذه الاهانة الجديدة فى موقف يرثى له · نظر الى الكردى باحتقار · ماذا يضحكه · هل لأنه محصل ؟

أما الكردى نفسه فلم يفهم علام يضحك · بدا الأمر غريبـــا للحاضرين · فهو يضحك فى منزل ارتكبت فيه جريمـــة قتل · ووسط تحقيقات الشرطة · ولا يمكن أن يكون هذا سوى ضرب من الجنون · صعقت نايلة لسلوك حبيبها المهين · ولم تجد توسـلاتها فى أن يكف عن الضحك · فقد بدا أن الشاب غير قادر على السيطرة على الرعشـــة التى تهزه من أعماقه وفى كل مرة ينظر الى الرجل يعاوده الضحك مرة أخرى ·

أحس المحصل بالاهانة وانتظر ان ينتهى الضحك كى يتكلم · لم يفهم شيئا · أما نور الدين فهو الوحيد الذى أراد ان يضحك وسط هذا المشهد المهيب · لكنه لم يود أن يحول الأمر الى مزاح · قال :

ـ كف عن الضحك · فلسنا هنا فى ماخور ·

قال الكردى وهو يضحك أكثر : فعلا ياسعادة البك · لسنا فى ماخور ·

أحس نـور الدين أنه يتهم الجميع · وانه اقترف جرما · فسكت وهو يشتعل غضبا · انهم فعلا فى ماخور · على كل فسوف ينال من هذا الشاب عندما يحين دوره فى الاستجواب ·

فى هذه الاثناء · استعاد المحصل جأشه · فقال :

ـ هل تعرف من أكون الآن ؟

ـ محصل · أين ؟

صاح المحصل وهو يشهد الجميع على وجوده : أيها الناس الطيبون · أنا أقوم بالتحصيل فى كل مكان · ألم تر محصـــلا من قبل ؟

قال نور الدين : مثلك · لا ·

ـ سيدى الضابط · أنا أحتج على هذه الاهانة · وسوف أشكو للوزير ·

أحس نور الدين أن عليه أن يتصرف بسرعة · والا لن يصل لشىء مع هذا الملعون · وسيكون جهـاز السلطة ألعوبة · وسيغدو الاستجواب ملهاة ساخرة لايمكنه ان يترك نفســه يخاطر · صفع المحصل على وجهه مرتين · اســـتدار هذا الصغير وأطلق صرخة مكتومة · وقد غطى وجهه بيديه · لكن الأمر جاء متأخرا · جلس نور الدين وهو ينظر اليه باشـــمئزاز · كل هذا دام كســـورا من الثانية ·

ـ اجلس · والآن فامامك فعلا ما تشكو منه الى الوزير ·

عاد الرجل الى مكانه صامتا · ســار منحنيا كأنما اصابته الشيخوخة فجأة · وبدا كأنه أفرغ كل كرامته خلفه ·

واستكمل التحقيق بشكل طبيعي · تصرف الزبونان الآخران بحذر واضـح · فذكـرا اسميهما ووظيفـة كل منهما بسهولة · وقد علاهما الشعور بالخزى لأنهما دخلا مثل هذا المكـان يفـكران فى الخروج بأسرع مايمكن · أطلق الضابط سراحهما ، وأيضـا سراح المحصل الذى يسير الآن فى طريق ملأته الأشباح · لن يتقدم بأى شكوى الى الوزير · فقد عرف فيما بعد أنه محصل متقاعد ·

عندما شـعر الكردى أن دوره قد حـان أحس بالقلق · فهو لايحب أن يمتثل امام الحكومة لأن هذا يعطيه الاحساس بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه · سوف يدافع ـ أخيرا ـ عن الشعب المظلوم · رغم ان هذا الشعب لم يوكله للدفاع عنه · لكنه ينظر دائما الى العدالة كأنه نصير المظلومين · فهو مشغول بقضايا الحرية التى قد يمسها الظلم من أى ناحية · يحس الآن ان الوقت قد حان كى يهاجم العدالة المجسدة فى هذا الضابط المتغطرس · ســوف يلقنه درسا وسيخبره ان الجريمة والقانون شىء واحد · وأحس بالسعادة ·

استدار نور الدين ناحية الكردى · وهو يدقق فيه · كأنه يقوم قيمة فريسته · وأحس هو أيضا بالسعادة :

ـ تعال يامن كنت تضحك ·

قام الكردى من مقعده · وجلس أمام المائـدة التى يجلس الضابط خلفها · وقد بدا عليه الاستياء :

ـ لن أجعلك تنتظر · اسـمى الكردى · موظف فى وزارة الأشغال العمومية ·

لم يحس الكردى بمـدى حقارة وظيفتـه مثلما أحس بها أمام هذا الضـــابط المتعجرف · آه · ليس نور الدين متعجرفا ولكنهـا طبيعة عمله التى تجعلـه يحتك بالجهلاء الذين تملأهم المرارة · أما الكردى فانه يحتقر أفكار ضباط الشرطة الغبية ولسوء حظه · فقد وضعته الظروف أمام ضابط الشرطة الوحيد الذى لديـــه موهبته الخاصة التى يطبقها بأسلوبه ·

ـ وهكذا يا سـيدى الموظف ترتاد بيوت الدعارة · هل أنت مندوب الوزارة ؟

ـ أجىء هنا بدافع الرغبة ، وأعتقد أن الحب ليس ممنوعا فى القانون · والا كان كارثة ·

أضاف نور الدين : لا الان ليس ممنوعا ·

ـ وهذا ما أتمناه فى المستقبل · لكن هذا لا يثير أى دهشة ·

ـ اذن فانت تفهم فى القانون · هل لديك الرغبة فى الشكوى !

رد الكردى بحماس : سأشكو عندما يكون هناك سببا ·

شعر نور الدين بالرضا الذى لم يشعر به أبدا فى تحقيقاته السابقة · يجلس الآن أمامه ـ متورطا فى جريمـة قتـل ـ رجل مثقف · لديه وعى بالأشياء وليس من الرعاع · انه يسعى الى مثل هذا اللقاء منذ سنوات · ترتسم السذاجة فى عينيه ويحس ان هناك تمردا فى هذا الشـاب · يميل الى الهجوم الذى يفتقده منذ زمن طويل ·

بالتأكيد ليس الكردى شابا ، ثم أن ملامح وجهه قد اكتست بأشياء غريبة · أثارت انتباه نور الدين الذى بدا وكأنه نسى أفكاره المريرة · الآن فان هناك تغييرا واضحا فيه · طريقته البالغة الرقة · الحقد الذى يحسه تجاه السلطة ·

دقق فيه نور الدين . بنوع من الاعجاب البادى . وقد شعر بالرضاء . لذا بدأ يتكلم فجأة باللغة الانجليزية :

ـ هل تأتى كثيرا هنا ؟

رد الكردى بنفس اللغة : كلما وددت اشباع رغبتى .

ـ يبدو لى انك تفضل احدى هؤلاء الفتيات . وانك عشيقها على ما اعتقد .

علا هذا الحوار ـ باللغة الانجليزية ـ وسط صمت قاتل . لم يفهم الباشكاتب شيئا فتوقف عن الكتابة . فى أول الأمر حك اذنه معتقدا أن صمما قد أصابها . ثم تجاوز الأمر . ووضع قلمه الكوبيا أمامه وحاول ان يتظاهر بأنه يفهم ما يدور . تصورت الست أمينة أن هذه اللغة الغريبة تخفى فخا مدبرا لها . تنهدت وهى تقول :

ـ بشرفى انه ليوم القيامة . يتكلمون فى بيتى باللغة الانجليزية .

قرر نور الدين ان يستكمل الاستجواب باللغة العربية . ليس ليطمئن الست أمينة . ولكن لأن المحضر قد وجد نفسه خارج اللعبة . فأخذ يلكز أسنانه :

ـ هل لك علاقات بأشخاص يأتون هنا ؟ أريد أن أعرف رأيك فيهم .

أمسك الكردى طرف هذا السؤال الجانبى :

ـ على مافهمت . فانت تعنى أن أحدثك عن الأشخاص الذين يمكنهم ان يرتكبوا جريمة . دعنى أخبرك ياسيدى الضابط أننى لست وغدا .

ـ لا أقصد . لقد فهمت خطأ . أريد أن أعرف ظروف هذا البيت . هل يمكن ان تعاوننى ؟

رد الكردى : على كل . فأنا لن أفعل شيئا أساعد به الشرطة. وأنا لا أعرف شيئا حول هذا الأمر .

ـ أليس لديك أى فكرة حول اسباب هذه الجريمة ؟

ـ هناك أفكار كثيرة . وأشك أنك يمكن ان تفهمها .

ـ لماذا ؟ سأكون سعيدا اذا عرفتها .

ـ حسنا . أنا أعتبر أن المجتمع هو المسئول الوحيد عن هذه الجريمة .

قالت الست أمينة :

ـ ماذا تقول يابنى ؟ هل جننت ؟

اعتقدت أن « المجتمع » الذى يتكلم عنه الكردى يعنى الأشخاص الموجودين خاصة هى . قال نور الدين وعيناه تلمع باحساس غريب :

ـ اسكتى يا امرأة ! استمر ياعزيزى . أنت تثير فضولى .

لكن الكردى كان قد انتهى من كلامه . أحس أنه قال كل مالديه بهذه الجملة الثورية . قال :

ـ ليس لدى شىء أضيفه .

بدا أن منابع ثورته قد جفت . قال نور الدين :

ـ للأسف . وددتك أن تعمق هذه الفكرة . لايهم ! فى مرة أخرى . هناك أسئلة أخرى سوف أطرحها عليك .

من الملابسات السعيدة الا يكون هذا الشـاب هو القاتل · فهو يتصرف بحرية ومثالية · ويلقى على الجميع تهمة قتل العاهرة · شاب فوضوى ! لعل هناك الكثيرين يفكرون بنفس الاسلوب · أحس نور الدين بالاعجاب بهذا الشاب الذى أيقظ كل أفكاره · وسوف يقوده بالتأكيد الى اكتشاف القاتل · لذا حاول الا يفاجئه· ســأل :

— هل يمكن أن أسمح لنفسى أن أسألك أين كنت بين الساعة الثانية والسادسة بعد الظهر ·

قال الكردى بدون تفكير : أتمشى ·

— حسنا · عذر عام · لكنه للأسف لايقنع · أليس لديك أقوال أخرى ·

— يمكنك أن تجد آثار أقدامى · فأنا أرتدى حذاء مميزا · ثم قام الكردى كى يشير الى كعب حذائه ·

لم يكن أمام نور الدين الوقت ليرد · فقد فتح بـاب المنزل ودخل منه ممرضان · يرتديان الملابس البيضـاء وهمـا يحمـلان نقـالة · ادخلهما الشرطى الى غـرفة العاهرة القتيلة · فاختفى ثلاثتهم · خرجا بعد قليل يحملان جثة أرنبة مغطاة بملاءة · هنا انفجـرت البنـات فى الصراخ وهن يلوحن باذرعهن كالمجانين · سد نور الدين أذنيه وانتظر بفارغ الصبر نهاية هذه الزوبعة المثيرة ·

ابتسم الكردى وهو يتذكر ذلك المحصل الذى أصابه الزهو ومدعيا أنه صديق الوزير · ولم لا ·

(٥)

استقبله ضجيج الأحداث وأضــواء مصـابيح الغاز فأحس بالهدوء · امتلأت مقهى المرايا فى تلك الساعة بجمهور غفير شغل كل الموائد · ســار بخطى بطيئة فوق الأرضـية المصنوعة من الطوب اللبن · يبث الراديو العتيق بعض الموسيقى الغـاضبة العالية · فتتمزج بأصوات وضحكات الجالسين · وسط هذا الحشد الغفير ترى شحاذين متجولين · وجامعى أعقاب سجائر · وباعة يطلقون الدعايات · كأنهم بهلوانات فى ساحة عرض · بدت مقهى المرايا كمكان خلقة الحكماء · بعيد عن عالم الأحزان · يشعر يحيى دائما بالاعجاب بهذا المكان الذى يشعر فيه بسعادة أقرب الى الهذيان · يبدو الفقر مجسدا فى ملابسهم القديمة · التى تلتصق بأجسادهم النحيلة · لم يغسلوا وجوههم خشية ان تظهر نحافتهم أكثر ·

زحام حقيقى · شق يحيى طريقا لنفسه ، سعيدا بهذه الضجة الأبدية · وأن يجد نفسه فوق هذا المكان · فهنا · لا يزعج دمامته

أحد . بالعكس فهي تتناسب مع هـذا المكان سرعان ما عرفوه . وأطلقت عليه التحيات الودودة . في بعض الأحيان يدعى الى تناول كوب شاى . انه يبحث عن جوهر ، لعله ينتظره . فعندما تنقص المخدرات يقع فريسـة للمعاناة ، فمعاناة جوهر هى الشيء الوحيد الذى لا يحتمله فى الدنيا لأنها تجعله قلقا . انه يضع كل كرامته جانبا كي يوفر لجوهر نصيبه اليومى من الحشيش . ولانه يقدم مثل هذا النوع من السعادة لرجل . وهى لا تدوم سوى ساعات . فانه يرى أن هذا الأمر أكثر فعالية من كل المحاولات التى لا تجدى والتى يبذلها المصلحون والمثاليون لانتزاعه من هذا العذاب الآدمى . يشعر يحيى انه يقدم أشياء ملموسة ، فالحلول بطيئة والنظريات المطروحة للتخفيف عن معاناة الشعب لا تمثل بالنسبة له الا دعايات سخيفة .

ضحك وهو شارد الفكر .

ودون أن يتكلم ، أحس أنه أسير لقائه الفـائت مع الفتـاة الحسناء . لقد نجح في الدخول اليها من خلال القصيدة . رغم قلقه من نتائج هذه المغامرة التى لا تحمد عقباها بالنسبة لحياته الخاصة .

أولا : لأنه واثق انه لا يكن لها أى شعور بالحب . فالأمر لا يعدو رغبة تنتابه . فهذه الفتاة المتغطرسة تبدو كأنها تتحداه . وقد أعطاه رد فعلها ازاء دمامته انطباعا عن مكرها . يرى يحيى أن هناك شيئا غير طبيعى فى سلوكها مما يدفعه أن يستكمل هذه التجربة الفريدة . انها المرة الأولى التى يجد نفسه يهتم بامرأة .. الا أنه لم يتخل عن كبريائه . فهو لا يمكن أن يترك بسهولة هذا المنبع الذى يسليه ويشكل له وجودا حسيا . فلديه ما يكفيه بالنسبة لقانون الاحتمالات كي يعرف أن مغامرة كهذه لن تتاح لرجل مثله قبل ثلاثة أجيال . لذا عليه أن ينتهزها ، ثم ان دروس البيانو

تضيف غرابة على المغامرة . ليس لأن يحيى يحب الموسيقى . فعلى العكس فهو يكرهها بشدة . ولكنه لا يصدق ان الفتاة سوف تعزف يوما أثناء حضوره .

هل يحدث جوهر عنهـا ؟ عليه أن يجده ، وسـط أنـوار المصابيح . فكر فى المرايا الضخمة التى تملأ الجدارن ، ارتعد بصره الضعيف . تقدم وسط الزحام بصعوبة عندما أحس بيد تمسكه .

ــ عزيزى يحيى . تفضل وشرفنى بالجلوس على مائدتى .

استدار يحيى . انه رجل شاذ معروف . يرتدى جلبابا من الحرير الأخضر ومعطفا واسعا ملونا ، يصبغ شعره وشاربه ويضع خاتما ثقيلا فى أصبعه . تاجر أقمشة بالغ الثراء . مشغوف بالأدب ، كثيرا ما شعر يحيى بغموض فى نظرات هذا الرجل .

ــ ما أخبار الشعر ؟

قال يحيى : يحتضر .

ــ ولا يهمك . تفضل واشرب شايا معى . فأنا انتظرك على أحر من الجمر .

ــ آسف . فأنا أبحث عن صديق .

غمز الرجل بعينه وقال : لقد فهمت .

ــ لم تفهم . فلم أصبح بعد مثلك . وقد يحدث يوما .

ــ سيكون يوما عظيما . ساكون سعيدا وأنا أعدك ضـمن أصدقائى .

قال يحيى محتجا : لا تفكر . مع مثل هذا الوجه .

ــ لا تنس انك جذاب بالنسبة لى . فأنا أحب العباقرة .

- وهل تريد ان تشاركنى عبقريتى .

انفجرا ضاحكين . قال يحيى :

- هذا مستحيل لأننى لست عبقريا . السلام عليكم . سأراك فيما بعد .

- اذن الا تقبل هذه السيجارة ؟

مد ليحيى علبة سجائر فخمة فأخذ منها واحدة أشعلها الرجل بولاعته الذهبية :

شكرا .

ترك يحيى التاجر الكبير . وبدأ من جديد يبحث عن جوهر . أين اختفى ؟

لا يراه فى أى مكان .

بدأ يشعر بالعصبية وهو يرى جامع أعقاب السجائر يسير فى عقبيه ينتظر اللحظة التى يلقى فيها سيجارته . بدا طعم عقب السيجارة رائعا للصغير وهو يدخنها . تتبع يحيى الذى القى سيجارته كى يتخلص من هذه المطاردة رغم أنه لم ينته منها بعد .

هتف الطفل وهو يلتقط العقب : ليحفظك الله .

فجاءة رأى جوهر فى محل الحلاق - طراز من الأكواخ التى لا أبواب لها - تنعكس عليه أضواء المقهى فتنيره يجلس جوهر فوق المقعد الوحيد وقد هده التعب . انتبه على صوت يحيى :

- تحياتى لأستاذى .

- لقد جئت أخيرا ، يابنى !

انحنى يحيى ناحية الأرض ، ساخرا كأنه يقدم كل احترامه لأستاذه :

- تحت أمرك دائما . ألن أزعجك ؟

- لا طبعا . اجلس .

اسرع يحيى لاحضار مقعد أخذ يجره فوق الأرض ، ثم جلس قريبا من جوهر وهو يلاعب وجهه . فى كل مرة يتم نقله بنفس الخفة ، يقال أن وجود جوهر يجعله فى أحسن حال . فتهرب منه كل معاناته ، وتتلاشى عندما يلمح أستاذه . وسرعان ما ينسى دمامته .

ران الصمت فى محل الحلاق - على جوهر مما أكسبه قوة خفية . يحترم يحيى هذا الصمت . يعرف أن صمت جوهر صفاء داخلى وبساطة . لكن فجأة انتابه احساس انه قد أهمل تماما ، رغم انه لم يطلب شيئا أبدا ، يغرق جوهر فى خضم شئ واحد هو المخدرات ، وبحيوية أخرج من جيبه ورقة ملفوفة ، وفتحها وقسمها الى قطعتين . قدم القطعة الكبيرة الى جوهر . أمسكها دون أن ينبس ببنت شفة ، لفها بين أصابعه وضع منها كرة صغيرة ثم وضعها تحت لسانه وكأنه يضع قطعة من السكر . أحس أن الحياة تعود اليه ببطء وان دماءه تجرى فى عروقه . أغلق عينيه وهو يشعر بالكمال فى هذه اللحظة الرائعة التى حانت بعد ضياع تام . لم يتحرك يحيى ، يبدو مشدوها لطريقة جوهر فى تناول المخدرات بالفم لسهولته . يعرف أن هناك أساليبا معقدة لتناولها . ويحيى يحب أجواء المدخنين الساحرة . الدخان الكثيف المتصاعد كأنه الضباب ، وخاصة الرائحة الخانقة التى تظل عالقة بالملابس لفترة طويلة أكثر من عطور النساء . هناك خيال رائع يجمع فى روحه كشاعر . لا يحسها فى جوهر وهو يتعاطى المخدارت بالفم . يشعر يحيى بالحوار أمام كل هذه المحاولات . يقال ان التأثير لا يختلف . وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من الحسرة على هذه الطريقة التى ينقصها ديكور الدخان .

أخذ يحرك لسانه وهو يرقب كل حركات وجه رفيقه . يشعر بالمتعة عندما تنتابه فكرة الحديث معه . لكن جوهر لا يزال صامتا حتى الآن . ولم يبق شيء يدل أنه حي سوى أنفاسه الخائرة .

بعد أن ترك الماخور الذى خنق فيه العاهرة الصغيرة . أخذ جوهر يتجول فى الشوارع باحثا عن يحيى ، استولت عليه رغبة عارمة فى تناول المخدرات . تصور نفسه فى مسرحية مأساوية ضاعت أهميتها وسط تلاطم الأمواج . ما أهمية جريمة واحدة وسط العديد من الجرائم التى ترتكب كل يوم بشتى الصور : الحروب والمذابح والضغوط . بالتأكيد فهو لم يشعر بالشفقة . رغم أن صورة ضحيته تخنقه عبر طرق المدينة . على كل فهو لم يود أن يحشر نفسه فى هذا الأمر . لكن كيف يفسر هـذه الجريمة ؟ أى مصير ساقه الى دنيا الجريمـة والشر . رفض جوهر أن يصـدق ما حدث .

لم يتخيل أن مصيرا ينتظره يمكنه الفرار منه أن يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات فى احدى المدارس الخاصة بالشعب ؟ هل قدره هو ان يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات فى المدارس الشعبية . هل يخون قدره بالهروب من هذه الأكاذيب ؟ بلا شك فهو رجل مرموق ونتاج حضارة لا تحبذ ارتكاب جريمة القتل ولكنه يؤمن أنه قد هرب الى الشفافية والسلام والسكينة فوق الأرض المغتصبة التى يعيش عليها نبيل يحب البهجة . ألم ينجح فى أن يحضر معه الرعب والاغتيال الى الملتصقين بجسده ؟ هل ستنتهى تجربته الى الفشل ؟ لا يصدق هذا .

كان يعرف دوما انه يجب ان يضع فى حسبانه عدالة البشر . فلن يمكن للشرطة أن تقوم بتحليل المجردات . فالمصير بالنسبة له يعنى سيف الجـلاد . ولن تفهم الشرطة القهر الضـاغط . انهم مشغولون بادخال العبيد الى عبوديتهم يعرف جوهر أنهم سـوف

يبحثون عنه بشتى الطرق . ليس لأن قتل هـذه العاهرة يمثل بالنسبة لهم مشهدا بشعا غير آدمى . ولكن ببساطة لأنه يزعج طغيانهم ، والمفهوم التالى أن كل مخطىء يجب ان ينال عقابه هو أيضا أحد الأكاذيب التى تستشرى فى مجتمع مؤلم وقذر هذه هى الأخلاق السيئة التى يقوم بتعليمها وهو يعتقد انها أقرب الى ثروة غير مقيدة كأنما الأمر مؤامرة سيئة ضد الشعب . فليست هناك وسيلة لاحترام الفقراء . لن يبقى له بعد هذه الجريمة ـ سوى كذباته القديمة وعماه المعقد تجاه القوى الجهنمية . لقد حطم كل شىء وكسر كل الروابط التى تربطه بهذا العالم الكريه لكنه ينتمى الى هؤلاء البشر المطاردين ، الذين يعيشون فى بؤرات الخوف ولكنهم يتمتعون بمقدرة طيبة على الحياة .

لا توجد عدالة قادرة على اعادة الحياة الى أرنبة . ولكنه هو ـ جوهر ـ حى . وعلى الشرطة أن تكافح ضد عدو حى ، رجل حى من الطراز المرعب ، يشعر بآلام كثيرة تحيطه ، عليه ان يناضل بكل ما يملك للاحتفاظ بهذه الحياة الجديدة التى تنتمى الى القوى الفوق آدمية .

وهو يشـعر بالحشيش يقوم بدوره . تحرك جوهر فـوق المقعد ، فتح عينه وابتسم وسط الظلام ، فهم يحيى انه يمكن أن يتكلم أخيرا :

ـ ماذا لديك لتقوله يا سيدى ؟

ـ اسكت يابنى . لقد عشت يوما مشهودا .

ـ كيف ؟

ابتهج يحيى وهو يدلك يديه . وبدأ وجهه يتحرك أكثر من ذى قبل . فصوت جوهر يؤكد انه سوف يسمع حكاية غريبة .

روى له مأساة الصباح . جاره الميت والمياه الملونة التى غمرت حجرته وصراخ النائحات .

ـ أسير فى الشوارع منذ الظهيرة . وهذا شىء مرعب .

هتف يحيى : انها حكاية غريبة . تستحق العناء . سيدى . مثل هذه الحكايات لا تحدث الا لك . بشرفى أنا غيور منك .

قال جوهر : بحثت عنك فى كل مكان . أين كنت ؟
بدا يحيى مهما . كأنه جزء من السر :
ـ ذهبت أزور أمى .

هناك شىء ما يتعلق بأم يحيى حاول جوهر أن يتذكره . ماذا ؟ لقد تذكر الآن :

ـ سمعت انها ماتت . تمنيت ان يكون الخبر كاذبا . اقدم لك عزائى يحيى .

قال يحيى ضاحكا : شكرا يا سيدى فالخبر ليس صحيحا . فهى حية ترزق . وقد نجحت فى أن أجعلها تعطينى نقودا ونصائح اخلاقية . فقط أردت أن أجمع بعض النقود . ما رأيك ؟

ـ أعتقد انها فكرة رائعة . واتمنى لك النجاح .

قال يحيى مغتبطا : أليس كذلك ؟ كنت واثقا انك ستوافق على . فهى امرأة رائعة .

ـ من . أمك ؟

ـ أجل . تقول لى أحيانا كلاما يقطع الأنفاس . رغم أننى أعرف أنها لا تتعاطى الحشيش .

هل تعرف ماذا قالت يوما ؟

ـ لا . ساكون سعيدا ان اعرف .

ـ قالت لى : « أنت الآن كبير كى تواجه ربك بنفسك » . أليس هذا رائعا ؟

قال جوهر : لا أفهم .

ـ لا تريد أن أسير فى طريق الضلال . انظر لى يا سيدى ! انت ترانى فى أواجه الله وحدى ولم أصل قط .

ـ ماذا أسمع . منذ متى تتعامل مع الله ؟

ـ لم أهتم أبدا . كانت أمى تتولى شئونى . هناك اتفاق شرف بيننا .

لكنه انتهى الآن ، مضطر أن أتصرف وحدى . يجب أن أوفر مبلغا من أجل جنازتها .

ـ أعرف أن رأيك صحيح . أحيانا ...

ظل فوه فاغرا . فسحر الحشيش يجعله يغرق فى هوس . وتأخذ الأشياء أشكالا مختلفة . يبدو انه لا يوجد مستحيل . يجلس فوق مقعده . وقد وضع يديه فوق عصاه التى يحتفظ بها بين سيقانه . فكر فى العلاقة التى تربط يحيى بربه . ويرى أن الله يقف مع يحيى ويساعده . يبدو كأنه يمارس العديد من أعمال الايمان معه بشكل يجعله انسانا ضعيفا ومميزا . يبدو الطرفان وكأن كل منهما يعرف الآخر منذ أمد طويل . يقولان كلاما بالغ القسوة دون غضب أو أن ترتفع حدتهما . ولكن هل هناك مسافة فى هذه الرؤية .

يقع كوخ الحلاق على مسافة قصيرة من مقهى المرايا . فوق رصيف ملأته الزبالة . فى المساء يأتى الشحاذون وجامعو أعقاب السجائر اليه كى يناموا فيه . يتكدسون كأنهم حيوانات فى حظيرة .

اكتشف جوهر هذا المكان ذات مساء كان يبحث فيه عن مكان عادىء • ومنذ ذلك الحين يجده أنسب مكان ، أما مقعد الحلاق فانه مصنوع لراحته • قال يحيى :

ـ سيدى • أريد أن أحدثك بشىء •

ـ قل •

ـ أنا واقع فى تجربة عاطفية •

ـ تحياتى • من هى سعيدة الحظ ؟

ـ فتاة تختلف •

قال جوهر : من هى الفتاة التى تختلف • عهدتك أكثر ذكاء يا عزيزى يحيى •

ـ أعنى أنها ليست عاهرة •

ـ برجوازية •

ـ أجل • فأبوها موظف •

ـ يا للبشاعة : هل تحبها ؟

ـ هل تعاملنى مثل الكردى يا سيدى • لست طفلا •

ـ وليس الكردى طفلا أنت لا تعرفه • فهو واقع تحت سيطرة الأدب الأوربى الذى يجعل من المرأة مركز الغموض • والكردى يفكر ان المرأة مخلوق مفكر تدفعه حاجته القانونية عنها أكثر منه كشخصية اجتماعية • وهو فى الحقيقة لا يؤمن بذلك فكل ما يطلبه من المرأة • هو أن يكون معها أغلب الوقت دون أن يدفع لها • لأنه فقير •

ـ لكن الأمر يختلف بالنسبة لى فأنا لا أود أن أنام معها •

ـ حب أفلاطونى • اذن فالمصيبة أكبر •

ـ ليست مسألة حب • ولكنه شىء آخر •

ـ ماذا اذن ؟

ـ لا أعرف •

سكت يحيى • لاحظ أن بعض الأطفال الأشعثى الشعر يقفون على مدخل الكوخ يسمعون حديثهما فى وجوم ويبدون مندهشين لما يسمعون • قال :

ـ لا يوجد مدخنون هنا • ولا توجد أعقاب • أنتم تضيعون اوقاتكم •

قالت فتاة فى الثامنة من عمرها وترتدى فستانا متعدد الوان : لا نبحث عن أعقاب • نود ان ننام • فهذا مكاننا •

قال يحيى : اذن تريدون النوم • لكن الوقت مبكرا ، فتنزهوا قليلا •

قالت الصغيرة ذات الشعر المصبوغ بالحناء : اعطنى قرشا •

بدت كأنها دمية صغيرة • قال يحيى : قرش ماذا ستفعلين به ، ألست خجولة من الشحاذة دعينا فى حالنا • فنحن نتناقش فى أمر هام •

قالت الفتاة وهى تبوز فمها : هيا بنا • فهم فقراء •

قال يحيى : هذا هو عيب الظلام •

ظل الأولاد جالسين قريبا من الكوخ • بينما يتطلع يحيى اليهم ويسمعهم ينطقون بكلمات بذيئة • لعلهم يفكرون فى أن يخليا المكان لهم • يعرف أنهم سيعودون الى أعمالهم •

ـ هذه الفتاة تدهشنى •

سأل جوهر : من • جامعة الأعقاب ؟

— لا يا سيدى · ابنة الموظف · لم تشمئز من منظرى · بل ابتسمت لى · أعتقد انها تراني لطيفا ·

قال جوهر قلقا : دعك من السذاجة · انها ترضى غرورك يا عزيزى يحيى · هذه الفتاة هى الهاوية ·

— نسيت ان اخبرك انها تدرس البيانو ·

— لم يستطيع جوهر أن يرد · فقد ازعجوه مرة أخرى · هذه المرة بائع أوراق يا نصيب · يمد له آخر ورقة بدت مجعدة قذرة · يبدو أنه التقطها من الأرض · صاح يحيى :

— كم تكسب هذه الورقة ؟

رد الرجل : ألف جنيه يابك ·

— لا تكفى · أليست معك واحدة تكسب عشرة آلاف ؟

— لا توجد ورقة تكسب عشرة آلاف — لا يوجد سوى الف · وهذه هى الورقة الرابحة اشترها وسيباركك الله ·

قال يحيى : اذهب · فألف جنيه شيء طيب للمتشردين ·

ابتعد الرجل فى الظلام وهو يلعن كل الأسباب التى دفعته للزواج ·

— هل تتصور يا سيدى · ان يكون معنا ألف جنيه ؟

— ولماذا تفعل يابنى ؟

— يمكنك ان تسافر الى سوريا ·

أثار حلم السفر جوهر بدلا من أن يمتعه · فهذا يذكره بجريمته · لقد انهار الحلم · هذا الحلم الذى لن يتحقق أبدا ·

افسد حلمه الأوحد · سوريا الفردوس التى يريد أن يقضى بها أياما سعيدة · من الصعب التخلص من تأثيرها عليه · ليست حلما · ولكن التخلص من الحلم ليس سوى الخلاص الأبدى · قال يحيى :

— يمكننى أن آتى معك ·

أدار جوهر رأسه الى رفيقه · كيف يخبره أن هذا مستحيل كيف يحدثه عن هذه الجريمة البشعة · لا يشعر أنه قادر على الاعتراف · ربما سيروى له كل شيء فيما بعد · فغر يحيى فاه ، وهو يشاهد شبح الكردى واقفا أمام الكوخ :

— لقد حدث أمر مرعب · ولا أستطيع أن أتماسك ·

لم يشعر الرجلان بالقلق لهذا المدخل · فهذا أمر مألوف · فالكردى يترك الناس يتصرفون دائما كأنه رجل يهرب من ممارسة الجنس أن يترك له وقتا لاستعادة أنفاسه وهكذا ظلا ساكتين لا يسألاه · انتظر بفارغ الصبر أن يقول لهما السبب فى اضطرابه · وسط هذا الصمت القاتل أطلق الكردى تنهيدة وقال :

— ليس الأمر مزاحا · فقد دخلت بيت الست أمينة ووجدته يعج برجال الشرطة ·

هتف يحيى : حملة آداب ·

— لا · فقد اعتقدت هذا فى أول الأمر · لكن الأمر أكثر خطورة · لقد قتلت الفتاة أرنبة المستجدة ·

وهو يتوقع تأثير ما يقول · هذا الكردى · وهو يعتبر أنه نقل اليهما خبر المأساة ·

سأل يحيى :

- هل عرفوا القاتل ؟

- لا · كل ما عرفوه انه لم يسرق شيئا · لقد خنق الفتاة · وهذا يثير جنون الضابط · ليست لديه شبهات فى أحد · جئت أخبركما الا تذهبا هناك · لقد استجوبنى · وكان أمرا صعبا ·

سأل يحيى :

- أى نوع من الاستجواب · هل ضربوك ؟

- لم يجرؤ أحد · عندما قلت أننى موظف حكومة غير الضابط لهجته معى · شخص غريب ·

أتعرف انه تكلم معى مباشرة باللغة الانجليزية ؟

قال يحيى : أماه · بالانجليزية :

- طبعا · لكن هذا لم يعجب الست أمينة · لم تصدق أن هناك أشخاصا يتكلمون باللغة الانجليزية فى منزلها ·

- أعرف هذا النوع من الضباط · انه يخدعك ·

قال الكردى :

- لا أحد يخدعنى ·

بدأ يتكلم عن الاستجواب · واحتفظ لنفسه بدور البطل الثورى فى ردوده على الضابط ·· وهو يؤكد ان الاستجواب كان عنيفا لكنه دافع عن نفسه بكل قوة ·

- لقد تصورته غبيا · لا يعرف كيف يخرج من هذا المأزق ·

لاحظ أن جوهر لم يقل شيئا فلصمت أستاذه أهمية خاصة · ويبدو غير مقبول التفسير ، ترى هل مات فوق مقعده ؟ قال :

- أريد أن أعرف رأيك يا سيدى · جريمة قاتمة · أليس كذلك ؟

رد جوهر كأنه يحادث نفسه ؟ ربما كان خطأ يابنى ·

- خطأ · من قال ذلك يا سيدى ؟

ثم انفجر ضاحكا ·

- نسيت لأخبرك انه كان يوجد رجل · زعم أنه صديق وزير ···

فى هذه اللحظة · دخل رجل حافى يرتدى أسمالا · دفع الكردى ودخل الحانوت ·

بدا ثائرا :

- أين الحلاق · أريد أن أقص شعرى ·

قال جوهر وهو يهب واقفا · هاأنذا · تفضل حضرتك بالجلوس ·

جلس الرجل فوق المقعد · وغط فى نوم عميق · قال جوهر وهو يسمع شخيره :

- هيا بنا ·

قال الكردى : أريد أن أتناول شايا · فقد جفف هذا الأمر حلقى ·

سار الرجال الثلاثة ناحية أضواء المقهى · وهم يسخرون من هذا المحصل الذى رآه الكردى فى الماخور · لقد نسوا الجريمة · وكان جوهر أكثرهم نسيانا ·

(٦)

فى الساعة الحادية عشر صباحا · جلس الكردي خلف مكتبه فى وزارة الأشغال العمومية وقد بدأ الذباب فى الطنين من حوله · الغرفة كبيرة واسعة مضاءة من خلال النوافذ العالية وتوجد بها مكاتب عديدة يجلس الموظفون خلفها · فيبدو الأمر بالنسبة له أكثر بشاعة من السجن ·

– انه سجن من نوع خاص · وضعوه فيه بصفة دائمة مع سجناء القانون العام · لقد وافق الكردى ان يكون مسجونا · ولكن شريطة أن يكون وحده فى الزنزانة · تحت شعار قضية سياسية ، ويقع باحزانه فى خليط من المشاعر النبيلة الارستقراطية لم يكن واعيا لها أبدا · كيف يفكر على سجيته فى مشاكل ذات صبغة عالمية أمام هذه الوجوه المليئة بالغبـار · وقد نذرت نفسها للعبـودية بلا حدود · وكى يعلن احتجاجه على هذا الظلم · رفض الكردى ممارسة العمل · راغبـا ان يحقق استقلاله الروحى · ولأن أحدا لا يلحظ هذا الاحتجاج فى داخله · فانه يتضايق ·

ليس سبب هذا هو المكر ، أو الكبرياء فى ان يمارس عملا يمكن أن يمارسه الأطفال ولكنه لأنه محبوس بصورة تثير الرثاء . يزامله أشخاص لا يستطيع ان يحتملهم فمعهم تبدو الحياة شيئا آخر . وكأنها حلم مزعج . ماذا فعل كى يلقى عقابا كهذا ؟ يجد الكردى نفسه فى مواقف ميئوس منها ، ان يرى نفسه يفر من هذا العدم . وهذا الروتين البيروقراطي . الغبى . الذى لا جدوى منه . يشك فى مصيره . انه لا يعرف ما يمكنه ان يفعل . فعندما يشعر انه فريسة لقلق أسود ــ مثلما يحس فى هذه اللحظة ــ يتخيل مأساة الشعب والضغوط المرعبة التى يقع ضحيتها ، يحلم بثورة قوية دامية . ولكنه اذا خرج الى الشارع واختلط بالناس : فان مأساة الشعب تصبح أسلوبا . تفقد كل عنفها وقوتها التفجيرية . يشعر أنه مجذوب لأدق التفاصيل الرائعة لهذه المأساة . لعظمة هذا المزاج لا ينضب . يحب فى هذا الشعب الفقير شغفه بالمرح . ورغبته فى السعادة والأمن تحدث وهو يعتقد انه أقل البشر حظا ؟ أين البؤس اذن ؟ أين قوى الضغط ؟ قيل ان هذه الصور التى تتزيف فى موضوع هذه المأساة فى العدم مثل الخيالات التى يشاهدها أثناء نومه. على الكردى أن يحاول جاهدا اكتشاف العنصر الهام فى تمرده . وعليه ان ينغمس فى دموعه . أو تهزه نكتة كبيرة.

ليس كل هذا بالشىء الهام . فقد أراد الكردى شعبا مفصلا على مقاسه : حزينا تحركه مشاعر الانتقام . ولكن أين يجده ؟

يحلم ان يكون رجلا مؤثرا . تتاجج دماؤه من القلق . هذا العمل السخيف . الذى يسد به رمقه . ليس الا لتقليل عطشه نحو العدالة الاجتماعية . انه حزين لأنه يقضى أغلب وقته مع زملاء أكثر بؤسا منه ــ متزوجون وآباء للعديد من الأبناء يبدو أكثر بؤسا مع نهاية كل شهر يأتى الزملاء الذين يرتبط عملهم بالكردى

ويقفون صفا أمام مكتبة : يشعر الكردى فى هذه اللحظة انه صاحب عمل يدفع لهم أجرهم أما النقود التى تتبقى له . فعليه ان يصرفها كى يعيش فهو يحيا حياة بالغة البؤس . ولكنها كريمة . المظاهر شىء هام بالنسبة له . على سبيل المثال فعندما يضطر أن يأكل فول مدمس . يجد نفسه يحادث البائع بأنه لا يأكل سوى الفراخ وان كثرة أكلها أفسدت شهيته . ورغم أن البائع لا تخدعه هذه الكلمات . الا ان مظهره يقنعه بذلك .

من مقعده يتأمل هؤلاء الزملاء المساكين ويرى فيهم سلسلة من العبودية . وهذه الساعات الطويلة التى يقتطعها من حريته تجعله حساسة تماما لآلام البشر يحرك مقعده وهو يطلق تنهيدة عميقة . يرفع العبيد المشغولون بالأعمال الشاقة رؤوسهم اليه وهم يلقون عليه نظرة غامضة . فيرد الكردى عليهم بنظرة عدوانية يحتقرهم جميعا . لا يمكنه أن يصنع الثورة مع ناس مثلهم . انهم هناك منذ سنوات . كم عام . لا أحد يعرف . ملتصقين بأماكنهم . تغطيهم الأتربة . وأوجه تشبه المومياءات . متحف حقيقى للرعب عندما يفكر أنه سيغدو مثلهم يفكر توا فى الفرار . ثم يشعر أن ساعة رحيله لم تحن بعد . ويظل يعانى فى هدوء .

وكى يفر من ضغط زملائه . حاول الكردى أن يهرب الى أحلامه كعاشق . لم ير نايلة منذ ليلة الجريمة . أى منذ ثلاثة أيام وبدأ يشعر بالأحداث المشئومة التى أحاطت بالماخور الذى تحرسه الشرطة . لذا تلزمه المخاطرة كى يقوم بمغامرة . فكر الكردى فى الفتاة وتخيلها مريضة وحيدة . تتوق لرؤيته وتلفظ اسمه عند النفس الأخير . ظل يفكر فى هذا الأمر فترة طويلة . ثم تملكته الرغبة أن يسطر خطابا لنايلة وأن يكلمها عن حبه وعن معاناة الشعب . للأسف فانه لا يستطيع أن يضع فكرته موضع التنفيذ :

لأنه لا يجد قلمه . تذكر أن رئيس المكتب قد أخذه منذ فترة . بادعاء استعماله . فى أول الأمر أحس الكردى بالغضب . ولكن بسرعة شعر بشىء ينزاح عن صدره فلديه الآن سبب يعتذر به عن عدم كتابه الخطاب . وهو ان نايلة لا تعرف القراءة .

يطير بعض الذباب فى الغرفة . يحط على أنفه . حاول الكردى أن يضرب احداها لكنه فشل . يشعر انه يفتقد الخفة الضرورية لهذا النوع من الاصطياد ، من جديد وللمرة العاشرة أمسك الصحيفة التى فوق مكتبه وتصفحها بعينيه . هناك عناوين ضخمة تعلن أن العالم يتسلح من أجل حرب قادمة . يبدو هذا فى الصحيفة كأنه شىء بعينه ولا يوجد له صدى مباشر فى الحياة اليومية . ثم اعلان الأمر بطريقة مبتذلة كأن الصحف تؤمن بالأمر الواقع . ولكن الكردى وجد نفسه فى هذه اللحظة فى حالة نفسية جعلته حساسا لأقل خطر فاعلان مثل هذا التسليح يبدو له للوهلة الأولى انعكاسا لواقع شرس همجى . فهى ليست كلمات مطبوعة بصورة مبسطة فى صحيفة . ولكنها تؤكد احتمال نشوب حرب موجهة ضد البشرية وخاصة ضده هو كأنهم يحفزونه ان يشهر كل أسلحته . شعر بالم مرعب . سوف تكون المذبحة مؤلمة سوف يسلخون جلده . ولكن ماذا يفعل انذاك ؟ ظل جالســـا خلف مكتبه لا يقوى على الحراك . عليه أن يفعل شيئا . أولا أن يشترى سلاحا فى عالم تتسلح فيه كل الدنيا . ومن غير المجـد أن يظل أعزل . انتظر فسوف يقتلونك .. ولن يتركوك تهددهم . يجب أن أتحدث مع جوهر ؟ ابتسم وهو يتصور جوهر مسلحا بمدفع رشاش . انهـا المرة الأولى التى يبتسم فيها هذا الصباح .

أمام هذه الفكرة المسلية لم يستطع الكردى أن يقاوم لفترة طويلة ذلك الغـذاء الخارجى لقد أدى دور العدالة . قام من مقعده وصاح :

ـ عز الدين أفندى .

انه رئيس المكتب . رجل عجوز ضعيف البصر للغاية . تجعله نظارته أشبه بحيوانات ما قبل التاريخ . يلتصق وجهه بالملف الذى يقرأه . سأل بصوت أجش :

ـ ماذا هناك ؟

ـ أصابتنى دوخة .

ـ ولا يهمك يابنى . صدقنى نحن نأسف لهذه الدوخة .

اعتاد الكردى على هذه الأمور يعرف أن رئيس المكتب يعتبره ممتازا . وأن مجرد وجوده يعنى انه موظف كفء . فهو مثال سىء لزملائه المساكين .

ـ السلام عليكم .

قال عز الدين أفندى : لا تأخذ الرجوع فى حسبانك ، بـل خذ راحتك .

هز الكردى كتفيه . ودون أن ينظر الى زملائه المترهلين . خرج من الغرفة . لم تكن الثورة بالنسبة له سوى تخفيف لتبرمه . ذات مرة تخلص الكردى من جلاديه فى حديقة الوزارة . لم يفكر كثيرا . الشمس صحوة . وقد ولدت فيها نسمة الربيع أفكارا حساسة ، عجل خطاه . آملا أن يرى نايلة . تملكه الفضول ان يعرف شيئا ما عن الجريمة . ثم اختلط بهذه الجريمة . ولا يمكنه ان ينسـاها فقد جعـله استجواب ضـابط الشرطة يشعر بلذة الحوار التلقائى حيث أحس انه قريب من الخطر . الخطر الحقيقى . فلم يكن الأمر مزاحا . لم يكن الضابط يلهو حين استجوبه . ارتعد الكردى حين تذكر هذا الموقف فلأنها تجربته الأولى فهو لم يشك

فيما تمثله السلطة · يريد أن يقف ثانيا امام هذا الضابط الجاهل · فهو لا يخشى أحدا · ماذا سيحدث لو قبض عليه ؟

تملكته دهشة · شعر انه يفكر في الضابط دون عداء أو حقد · ولكن بفرحة وبمتعة سادية · غريب ! تساءل · حتى الآن فان مشاعره نحو نور الدين قد صبغت بحقد ثابت يمكنه من اختبار قوته · اكتشف فجأة شيئا غريبا · فنور الدين ليس ضابطا متعجرفا · ولكنه فريسة رغباته · والمتاعب تلحق به · وخلف هذه الأكذوبة ووراء الضغط الذى لا ينتهي والذى يمارسه على العديد من الناس فانه يمتلك وجها جديدا · وفى هذا الوجه فكر الكردى فى مشاعره المضطربة · حاول ان يتذكر حادثا واحدا بداله أثناء الاستجواب خارجا عن حدود الروتين البوليسى من هو بالضبط ؟ أجل · لقد تحدث معه باللغة الانجليزية : اللغة الوحيدة التى يفهمانها · ترى لماذا ؟ كان هناك شيء ما فى هذه اللغة الغريبة · كان نور الدين قد ترك استجوابه وأراد أن تكون فيما بينهما رابطة من المحبة تذكر الكردى منظره البهيج وصوته الصافى · وقد امتلأ بثقة تتفق مع مظهره عندما حدثه عن علاقته بالفتاة نايلة · أحس أن الضابط قد خرج عن مألوف وظيفته الرسمية كى يغدو انسانا محبوبا · جذابا وقد كان · يا الهى : لقد أدرك الآن أن نور الدين ضابط الشرطة يمثل نموذج الضابط الشريف · وليس غليظا بالمرة ·

وعندما توصل الى العمق الانسانى لهذا الاكتشاف · عبر الكردى حى الوزارات ثم دخل فى حارة شعبية · ووجد نفسه واقفا أمام بيت الست أمينة وأثناء طريقه لم يكن يفكر فى هذه الفروق الاجتماعية التى اعتاد ان يكررها بوتيرة واحدة · ففكرة أن الضابط شخص جذاب قد جعلته بالغ السعادة ونسى موقفه ضد السلطة · وتحول الخوف الذى أحسه خلال الأيام الأخيرة والذى لم يبح به ـ

الى تفاؤل رائع · بالتأكيد فهو لا يرهب جانبه ولهذا يسرع الآن للقاء نور الدين ·

كست وجهه ابتسامة رضاء عندما طرق على باب المنزل · هتف زايد :

ـ الكردى أفندى : يا الهى لماذا تجيء هنا ؟ فالمنزل مغلق ونحن لا نعمل ·

قال الكردى : انها زيارة ودية · دعنى أدخل ·

ـ نحن مراقبون · ألم يرك أحد ؟

ـ لا · لم يرنى أحد · اهدأ · فأنا الرجل الخفى ·

ـ ادخل · فعين الشرطة علينا ·

دخل الكردى ونظر الى زايد وهو يغلق الباب ·

ـ ألم تشعر انك فى سجن ؟

قال زايد بصوت مرتجف : هيا ، هيا · يا كردى أفندى · أرجوك لا تمزح · كدنا أن نموت من الانتظار ·

ـ من هذا ؟

لم يرد زايد · رمقه واختفى فى الممر وقد أصابه القلق · كأنما لدغه ثعبان ·

ظل الكردى واقفا فى الصالة · أحس بالرضاء لهذه النكتة · بدا له انه لم يأت هنا منذ سنوات · ورغم انه لم يتغير شيء فى الغرفة · المائدة والمقاعد فى نفس أماكنها · حتى الست أمينة التى بدت كأنها لم تتحرك من مكانها منذ ليلة الحادث المشئوم حين غزت الشرطة منزلها · رآها الكردى فى الظلام متكومة فوق الأريكة · أسندت يدها على خدها · وبدت كأنها تستحق الرثاء ·

ـ اقترب منها ـ وقال بوقار :

ـ تحياتى يا امرأة · لا تقلقى فقد جئت لأدافع عنك ·

رأته يدخل ويكلم زايد · لكن بدا أنها لم تعد تهتم بهـذه الضجة · قالت وهى تنظر اليه كأنه شبح :

ـ هل أنت مجنون لتجىء هنا ؟ لقد منعونى من استقبال زبائن · هل تريدنى ان أموت ؟

ـ لست هنا كزبون يا امرأة · لقد جئت لرؤية خطيبتى ·

ـ خطيبته ابطلوا هذا واسمعوا ذاك ·

ـ أجل خطيبتى ! اذا كنت لا تعرفين فاننى أخبرك ·

تنهدت الست أمينة وسكتت · لقد اعتادت الا تتعامل مع المجانين منذ طفولتها · وبدا لها ان الكردى قد فقد صوابه · كأنما لم يعد يكفيها غباءاته · سألته بصوت أجش ·

ـ ومتى حفل الزفاف ؟

ـ قريبا جدا · جئت أعلن عليها نبأ سارا ·

ـ حسنا اجلس فأنا أود أن أكلمك ·

أخذ الكردى مقعدا وجلس قريبا من الأريكة ·

ـ ماذا لديك لتقوله ·

بدا أن الست أمينة تخرج من سباتها لأول مرة · تحركت فوق أريكتها · فرغم انها تخشى الشرطة الا أن زيارة الكردى قد ملأتها بالسعادة · لقد وجدت أخيرا شخصا يمكنه ان يلحظ روحها الميتة · فهذا الموقف المأساوى فى حاجة الى من تثق فيهم · وليس أمامها أحد توليه ثقتها · فالبنات غبيات ومشغولات بالبكاء حاولات ان تحدث زايد عن متاعبها لكن بدا ان الخادم خائف من الشرطة ـ

ويود أن يرحل لقد جاء الكردى فى موعده : فسوف تموت بعد يوم أو يومين من الاختناق ·

ـ هأنت ترى ماذا حل بى يابنى ؟ بالله ماذا أفعل ؟

قال الكردى : ولا يهمك ·

ـ كيف · هل ترى أن هذا أقل أهمية · انها جريمة قتل فى بيتى ·

ـ يحدث هذا فى أحسن البيوت · صدقينى · انت تلبسين الأمر أهمية لا داعى لها ·

ـ ليسمع الله منك يابنى ؟ أشعر كأننى أصبحت عجوزا ·

ضحك الكردى ساخرا : أنت · عجوز ·

ـ أسكت · فأنا فى سن أمك ·

لم تكن احتجاجات هذه المرة بل اعتراض · والكردى يعرف ذلك وهو يراها ممددة فوق الأريكة مثيرة · فكبرت فى رأسه · أما الست أمينة فانها تفكر فى شىء آخر · فى ذلك الحوار الذى دار بلغة أجنبية فى تلك الليلة المشهورة بين الكردى وضابط الشرطة ·

مالت نحو الأمام · أمسكت ذراع الشاب وجذبته اليها :

ـ انظر الى وقل الحقيقة ·

سأل الكردى وقد أصابه القلق من طريقتها : ماذا تودين أن تعرفى ؟

هل صدقت المرأة فعلا ·

ـ قل لى · ماذا قال لك باللغة الانجليزية ؟

ـ من يا امرأة ؟

ـ ضابط الشرطة · الذى كلمك بالانجليزية · لم افهم شيئا ، أعرف انه كان بالانجليزية لست غبية ، فأنا أعرف اللغات ·

ـ حديث خاص وليس عن الجريمة ·

ـ هل أنت متاكد ألم يكلمك عنى ؟

ـ ولا كلمة · بشرفى · التزمى الهدوء ·

ـ لقد أذانى · ماذا فعلت لهذا الرجل ؟ لماذا يعاملنى هكذا ؟ هل أبدو قاتلة ؟

ـ مهنته اخافة الناس · وأنا أيضا · لقد حاول ان يثيرنى · ولكننى أكررها عليك · فالأمر ليس مهما للغاية ·

ـ أود أن أصدقك ·

فكرت لحظة · قال مبتسما :

ـ أعتقد هذا ·

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لن يلزمنى وقت طويل كى أعرف أى نوع من الرجال هو · ليحفظنى الله ·

تراجع الكردى فى مقعده وانفجر ضاحكا :
ـ حقا ؟

ردت الست أمينة : كيف لم تعرف · بعينيه الرقيقتين لاحظت ذلك · وكأنه سيقبلك على شفتيك ·

قال الكردى : أشك فى ذلك ·

لم يفت الكردى انها قد كرهت نور الدين منذ الوهلة الأولى · كيف فكرت فى هذا الأمر المخزى وهو الذى يسخر من السلطة · قالت :

ـ طالما انك رقيق معه · حاول أن تغازله ·

ـ ماذا تقولين يا امرأة · فأنا أكرهه كرها شـــديدا · من تتصورينى · لست وغدا كما تعتقدين ·

ـ لا تفعل هذا يا صغيرى ! تريد ان تحطمنى · انظر أى حزن يغلف البيت · وهؤلاء البنات اللاتى يقضين أوقاتهن نائمات · وقد حل النحس عليهن · كيف أجعلهن يعدن لتذوق العمل ثانية ·

قال الكردى : جئت لانقذك · فلا شىء يمنعنى ·

ثم قام ·

ـ أتركك الآن · تحياتى · هل تنام نايلة فى حجرتها ؟

ـ نعم · ألم تسمع · قلت لك انهن نائمات · لا يتصورن أن أحدا سيطرق بابنا ·

أنا وحدى هنا حاول الا يراك أحد وانت تخرج ، يبدو ان هناك مخبرا يقف أمام المنزل ·

قال الكردى واعدا : لا تقلقى · سأخذ حذرى ·

بدت حجرة نايلة مثل بقية غرف البنات مشغولة بهن · وفى كل مرة يعبر الكردى العتبة يحس بحزن شديد · نوع من الهلع الشديد · يرجع هذا الاحساس المعقد لرائحة الأدوية التى تنطلق من الغرفة · هذه الأدوية المخبأة فى الدولاب ذى المرآة حتى لا ينفر الزبائن · لا يمكن ان يربطهم فى أفكاره · لقد عرف منهم مرض عشيقته · والمرض ينخر فى نايلة حيث لا تظهر أى جروح ظاهرية ·

ولا يمثل بالنسبة له سوى نوع من الشفقة فى الواقع فان هـذه الروائح تجعله فى وضع مربك • فيشعر كأنه فى غرفة مرضى • ويثير هذا الاشمئزاز • لقد جاء بدافع ممارسة الحب وليس بدافع الشفقة •

انقبض قلبه وتملكه احساس مهيب وهو يرى الفتاة ممددة فوق السرير • بدا وجهها شاحبا مكسوا بحزن غريب • لاهثة الأنفاس • تعرف عليها الكردى بصعوبة وخلال لحظة نسى رغبته ولم يفكر سوى فى انقاذها من موت محقق ومصير يلقى نفسه فى طريقها •

اقترب منها وناداها :

ـ حبيبتى •

فتحت نايلة عينيها ونظرت اليه بدهشة :

ـ أنت ؟!

ـ أجل يا حبيبتى • كيف حالك ؟

ـ منذ متى وانت قلق على صحتى ؟

أحست بالمهانة • كأنهـا تود ان تظل هادئة فى حدتها • أشارت انه لا يستطيع شيئا بالنسبة لها •

ـ لم أستطع أن آتى قبل ذلك • ألا تفهمين أن المنزل مراقب من الشرطة ؟

ـ اذن فالشرطة تخيفك الآن : كنت أتصور انك يمكن أن تخترق النيران لأجلى •

ـ حقا يا عزيزتى • ولكن لا يتعلق الأمر بالشرطة • الحقيقة اننى كنت مشغولا بأشياء أخرى • يجب أن أخرج من هنا بسرعة • لقد قررت الا تستمرى فى هذا النمط من الحياة •

ـ قررت • حسنا • دعنى أقول لك انها حياتى • ولا أريد شيئا آخر •

ـ افهمينى • أود أن أراك سعيدة •

ـ يا الهى • كيف أعتمد عليك فى أن تجعلنى سعيدة ؟ فدخلك الصغير فى الوزارة لا يمكنه أن يجعل قطا سعيدا •

ـ سوف أكسب عما قريب الكثير من المال فى صفقة هامة • صدقينى •

لم تكن تصدق كلمة واحدة مما يقول • فهو أقل أهمية • المهم بالنسبة له أن يخمد غضب نايلة بكذبات ملفقة وتصدقها • فهى لا تطلب سوى أن تصدقه • تركت نفسها تستمع لكلمات حبيبها المنمقة • هذا الحب الرائع الذى تكنه للكردى يجعلها تشعر بالفخر • فهو يختلف عن كل الرجال الذين قابلتهم فى بيت الست أمينة • رغم انه يتصرف كالصعاليك • الا أنه يسحرها بوضعه الاجتماعى فالكردى موظف حكومة • ويمثل جزءا من طبقة عالية من المجتمع • يخاف على مكانته • لم تفسر نايلة هذا الاحساس الغريب الذى يبدو ثقيلا على الشاب • فى أول الأمر اعتقدت أن مرضها سوف يبعده عنها ولكن على العكس • فقد دهشت وهو يقترب منهـا أكثر • جعلها هذا الموقف فى أمر حرج فهى تجهل ان الكردى يعتبرها ضحية لنظام اجتماعى يكرهه ، وانها سواء كانت مريضة أم سليمة فهى تمثل صورة لعالم يسير بقانون الوراثة •

فهم ـ فى صمتها ـ ان حالتها الجنونية قد مرت ، جلس على طرف السرير ، بدأ يضع رأسه عليها ويداعبها • تركته يداعب يديها • ثم وجهها وجسدها • بدت سعيدة • ولمعت عيناها ببريق حار • كم كانت لحظات البعـاد طويلة • فجأة تعلقت باحضـانه وانفجرت باكيه :

ـ ماذا بك يا عزيزتى ؟

ـ لا أستطيع أن أنسى المسكينة أرنبة أبدا .

قال الكردى : اهدئى ولا تفكرى . لن تعيديها بالبكاء . ليس بأيدينا شيء .

ـ اسأل من يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء . دون سبب يذكر .

ـ بالله لا أعرف . لكنه ربما رجل ذكى .

ـ من قال لك هذا ؟ ما الذكاء فى قتل فتاة مسكينة ؟

ـ على كل فلن يقبضوا عليه طالما تولى التحقيق ضابط جاهل كهذا .

ـ هل رأيته ؟ هل استجوبك مرة أخرى ؟

ـ لا . ولكن أتمنى أن أراه يوما . فلدى أشياء كثيرة سألقنه اياها .

ـ ماذا ؟ قل لى .

أطلق الكردى ابتسامته وقال :

ـ لا يتعلق الأمر بالجريمة . ولكن بأمر شخصى فيما بيننا .

ـ أستحلفك الا تلق بنفسك الى التهلكة معه . أنا أعرفك .

قال محتجا : وهل أنا طفل أنا لا أخشى أحدا . أما هـذا الضابط . فسأفعل به ما يحلو لى فعلا . لم يعد نور الدين خصما بالنسبة له . حتى الآن . فالكردى يعتبر الجريمة كعمل شخصى بعيد تماما كأنه لم يحدث . فالمجرم موجود فى كل مكان . والبنت أرنبة لم تخنق وحدها . تساءل الكردى ان كان يعرف كل الناس

الذين يأتون الى بيت الست أمينة . وبتركيز حاول ان يتذكر كلا منهم ولكنهم كانوا بعيدين عن الاتهام فى جريمة كهذه اختفى فيها الدافـع .

ساقته أفكاره الى تصفح وجوه البعض . لا . فكر أن يقبض على القاتل . لكنه لن يبلغ أبدا عنه يود أن يعرف الأسباب التى دفعته الى ذلك لعلها جريمة سياسية طالما أنه لم يسرق شيئا .

ـ المهم هو ان يعرف السبب .

نظر الى وجهه فى المرآة.وتذكر الأدوية المحبوسة فى الدولاب. فأدار رأسه .

ـ سوف أخلع ملابسى .

قالت نايلة : الا تفكر سوى فى ذلك ؟

امتلأ صوتها بالمرارة ، رد الكردى :

ـ أجل يا حبيبتى فيما تودين أن أفكر ؟

ـ كيف يمكنك أن تحب فتاة مريضة مثلى ؟ أنا دميمة الآن للغاية .

ـ المهم هو جمال روحك . ألم تفهمى . أنا أحب روحك .

وكى ترضى نايلة صديقها . آثرت الصـمت . ولم تحـاول مناقشته . فهى لم تعرف أبدا حقيقة ودافع حبه المزعوم . أى أفاق هو ، يزعم أنه يحب روحها . وهذا سبب قوى . رأته يخلع ملابسه ويضعها منظمة فوق المقعد . وذلك الغبى . من يصدقه . ودت أن تضحك . لكنها آثرت الصمت . لم تكف عن التحديق فيـه

بعينين يملاهما الأسى . انها تفكر فى القاتل . لقد تولد الحزن منذ تلك اللحظة المأساوية التى سمعت فيها صراخ الست أمينة ونواح البنت وحيدة فى غرفتها . فهمت معنى الأصوات . تملكها اكتئاب شديد . وفيما بعد بدأت ترى تقاربا بين الجريمة ووجود الكردى فى ذلك اليوم فى البيت . هذا التقارب البسيط وموقف الشاب أثناء استجواب الشرطة يكفى لخلق شك لا يحتمل . فهل هو القاتل ؟

أثناء الأيام الثلاثة التى لم تر فيها نايلة صديقها حاولت أن تتخلص بدون جدوى من هذه الوســاوس المرعبة . ولكن كتمان الكردى غموض وعلاقتـه بضابط التحقيق يقويان من شكوكها . ودت أن تسأله . لكنها لم تجرؤ .

الآن . يقف الكردى . رغم أنه بقى وقورا . فقد نسى أن يخلع طربوشه . فجأة أدرك ذلك فخلعه ووضعه فوق المقعد على ملابسه المنظمة . ثم تمدد قريبـا من الفتاة وضمها الى صدره كأنه يحتمى بها .

ـ قل لى . ألم يكن أنت ؟

ـ من أنا يا فتاة ؟

ـ الذى قتلها ..

ـ ماذا تقولين . هل جننت ؟

ـ فكرت فى هذه الأيام انه أنت . أنا خائفة . أليس أنت ؟

ـ بالتأكيد لست أنا . من ادعى عليك هذا ؟ لم أقتل أحدا .

فكر وهو يضع رأس نايلة على كتفه فى أنها تشك أنه مدبر الجريمة .

أحس بالذعر وطرأت على ذهنه فكرة جنونية . فلو جعلها تصدق انه قاتل العاهرة الصغيرة . فبماذا يخاطر ؟ انها فرصة غير طيبة أن يتدثر بمجد عاطفى فى يوم مكفهر .

أحس بالسعادة لفكرته . فكر أن يمارس الحب . ودون أن يتحرك بدأ فى مداعبة اذنها وهو يهمس لها ببعض الكلمات البذيئة .

ـ عندما أراد أن يمتلكها . نظرت نايلة فى عينيه وقالت :

ـ اقسم لى أنه ليس انت .

ـ أقسم لك . هيا دعينا فى هدوء ، ولا تتكلمى عن هذا

لكن فى لهجته رنة شك . لعلها لا تصدق . شعرت نايلة أن دماءها قد بدأت تتثلج فى عروقها . وظلت لفترة طويلة باردة لا تتحرك بين ذراعيه .

(٧)

جعلته قذارة المكان أكثر احساسا بالدونيـة . فى محل الحلوانى المثير للتقزز . يقع فى مكان بعيد من أحد الأحياء الشعبية . فى منطقة يؤمها البشر . والكلاب الضالة . هذا المكان نموذجى لمثل هذه المقابلات التى تهم نور الدين . اختاره دونا عن الأماكن الأخرى كى يخفى علاقاته السرية . هنا تقل المخاطرة . حقـا ان أيا من هؤلاء الأصدقاء الشبان لا يشاركه أفكاره . فهم لا يكونون سعداء وحين يدعوهم الى هذا المكان الذى يصر نور الدين أن يتناول الحلوى فيه . يقدمون حلوى غير شهية خاوية الطعم . يتساءلون اذا كان نور الدين لا يود ان يكبح جماحهم . يشعر نور الدين نفسه بعدم ارتياح فى هذا المكان ويخفى الظروف التى تجبره أن يخفى نفسه كأنه متآمر . كيف له أن يتصرف ؟ خزى ضابط الشرطة ليس مصنوعا كى يسهل له الأشياء ، ففى أى مكان يذهب يشعر بالعيون مركزة عليه . ويحس أنه يتمشى بدون ملابس .

وكى يأخذ حذره اكثر • اختار نور الدين مائدة فى نهاية المحل • يجلس أمام سمير الذى آثر الصمت • فهو لم يفتح فمه منذ أن جاء ، يوجد فوق المائدة • طبقان يحتوى كل منهما على قطعة من حلوى رديئة الصنع • لم يلمسها أى منهما • فهو لم يطلب الحلوى الا كشكل اجرائى • ربما لأنه جوعان ، تكلم نور الدين كى يحطم هذا الصمت :

ـ الا تأكل ؟

لقد أخطأ • أبدى سمير اشمئزازه • وهو ينظر الى نور الدين بازدراء :

ـ اتود أن آكل هذا فعلا يا سيدى • من تتصورنى ؟

ـ معذرة • يا عزيزى سمير • لم أفكر جيدا • فأرجوك الا تلمسها •

ـ بشرفى • لقد تعمدت هذا •

ـ ماذا ؟

ـ ان تدعونى الى مكان قذر كهذا •

ـ لقد شرحت لك اننى لا استطيع أن اذهب الى أى مكان آخر حتى أوفر على نفسى مقابلة أشخاص أعرفهم •

ـ لماذا ؟ هل تخجل منى ؟

ـ ليس هكذا • تعرف جيدا يا سمير • أفهم أنه من الصعب ـ مثلك ـ أن أجلس هنا لكن الظروف تحتم •

ـ أتسمى هذه ظروفا ؟

ـ أرجوك • هدىء نفسك •

استعاد سمير وجهه المستاء • ولم يتكلم • ملأ نور الدين الاحساس باشمئزاز • شاب فى الثامنة عشر • ذو ملامح جميلة • لا يرتدى طربوشا يرتدى قميصا ذا ياقة مفتوحة وسترة رمادية لا يرتديها سوى أبناء الطبقة الميسرة ، لا يتشبه بالنساء مثل أقرانه، فهو بعيد ان يكون احدهم • الرباط الذى يربطه بنور الدين هو الكراهية العامة • فسمير يكره فى نور الدين المبادىء الأخلاقية التى يعانى منها فى أسرته الكبيرة • ويبدو ضابط الشرطة الخير مجسدا! أما أبوه المدعى العام ـ هذا القاتل الشرس ـ فان نور الدين أول من يكرهه • فهو يستغل منصبه فى اشباع ساديته وكلما قابل ابنه نور الدين زاد احساسه بالكراهية •

منذ بضعة أشهر • هجر سمير الجامعة التى يدرس فيها القانون • وقرر أن يدرس الحياة بعيدا عن الكتب • فى الشوارع والأزقة •

لا يعرف نور الدين لماذا وافق الشاب ان يقابله • ظل الأمر بالنسبة له سرا غامضا • حتى الآن لم ينجح فى ان يكسب ثقته • فهو بالغ الذكاء ، يشعر أنه يسخر منه ، وانه لم يأت الا كى يثير استفزازه • قال وهو يتصنع الغضب :

ـ معذرة • أعرف أن هذا المكان لا يليق بك • وأنا أيضا • يمكننا أن نذهب الى شقتى وهناك نستطيع أن نتحدث •

ـ نتحدث • يا لها من مصيدة يا سيدى الضابط • هل تتصورنى طفلا ؟

ـ أنت تهيننى يا سمير • ماذا تخشى ؟

رد الشاب وهو ينظر الى نور الدين بكراهية :

ـ لا أخشى شيئا • ولن أذهب الى منزلك •

علا الشحوب وجه نور الدين وقد صدمته النظرة الكارهة ·

يحاول أن يفهم شيئا · لم يفكر ان يقابل هذا الشاب اللماح · فى كل لحظة ينظر الى الباب خشية أن يدخل أحد معارفه · لا يمكن لأحدهم أن يأتى هنا · انهما وحدهما بعيدين عن كل العالم · يهربان من كل الأنظار · حتى صاحب المحل قد أدار لهما ظهره وانشغل بطرد الذباب · أما أغلب زبائنه فيأكلون الحلوى وهم واقفون فى الحارة يلفها البعض فى ورق جرائد · قوم صامتون · يبدو كأن معجزة تدفعهم للحياة · أغلق نور الدين عينيه وكأنه لا يصدق الواقع · وهو ينظر الى الشباب الذى يجلس أمامه ويتنهد ·

ترك الحلوانى بعض الأطباق التى حطت عليها مجموعات الذباب · حاول سمير أن يصطادها بلا جدوى · تعود للطيران مرة أخرى · تحط على وجهه · دخلت احداها فى عينيه ·

قال غاضبا :

- سوف يقتلنى هذا الذباب اللعين · هيا بنا ·
- من فضلك ابعد لحظة ·
- لماذا ؟
- الست سعيدا بصحبتى ؟

ابتسم سمير ساخرا :

- كيف · هذا من دواعى الشرف لى · لكن هناك شيئا يضايقنى ·
- ماذا ؟
- أود أن أقول انه لا يمكن لنا ان نتفاهم ·

لم يجد نور الدين شيئا يرد به · يملؤه هذا الرد بالخوف ·

يتمتع سمير بكبرياء غريب · يبدو مشدوها بنظرة سمير الكارهة · انه صغير للغاية كى يحمل كل هذه الكراهية · هل سمير ثورى ؟

هل هو أحد الشباب الذين يحلمون بالهجوم على الحكومة ؟ وتراهم الشرطة حاقدين ؟ رفع نور الدين يده كأنما تذكر منصبه ·

لكن هذا لم يدم طويلا · بدأ العرق يتصبب على جبينه · وتخلصت ملامحه من الاذلال · فهم فجأة انه لا يمكن أن يظلا صامتين طويلا · يجب أن يقول شيئا أن يرتجل أى كلام :

- عزيزى سمير ·
- أجل ·
- أعدك · أن أصحبك فى المرة القادمة الى مكان فخم فى الحى الأفرنجى ·
- لقد أصبح سيدى الضابط أكثر تطورا ·
- لكن هناك شيئا من الأفضل ان تفعله ·
- ما هو ؟
- أن تغطى رأسك فليس من اللائق أن تسير بلا طربوش ·
- وعنى أقول لك أننى أرتدى ما يعجبنى · ثم اننى أمتلك طربوشا ·
- عدنى وسأقدم لك واحدا ·

فكر نور الدين ان مثل هذا الشاب حين سيرتدى طربوشا سيكون أكثر احتراما · تخيل ان سلوك سمير ملىء بحيوية الشباب ·

- طربوش آه أنا أود سيارة · لماذا لا تقدم لى سيارة ؟

قال نور الدين : هذا فوق مقدرتى ·

— اهدأ فأنا أمزح · ماذا أفعل بسيارة · وحتى لا أخفى عليك سرا · فأبى النبيل يمتلك سيارة ولم أركبها قط · أود أن أموت ·

— لماذا ؟

— لن أخبرك · فلن يمكنك أن تفهم ·

من جديد ران الصمت بينهما · بينما تكاثر الذباب حولهما أكثر من ذى قبل · لم يتنهد نور الدين · فكر بسرعة أن الشباب بهذه الكلمات الأخيرة يبدو كأنه يدينه بتهمة عدم الفهم ·

فكر أن يطرحه أرضا · يعنى هذا انه غير أهل للثقة · نوع من الاهانة · لا يمكن أن يتركه دون عقاب ·

تنهد بعمق وهو ينظر مرة أخرى الى باب المحل · ثم قال مرتعشا كأنه يتحدث حول يوم القيامة :

كيف يمكنك أن تقول انى غير قادر على الفهم · انت تتحدانى يا عزيزى سمير · أحب أن أعرف ماذا يهمك · وسأكون سعيدا أن أخفف عنك أحزانك · أتمنى الا تشك فى ·

— انت لطيف يا عزيزى الضابط · وأنا لا أعانى من متاعب ·

— اذن ماذا يجعلك كثير المرارة ؟ معذرة · أعتقد ان علاقتك بأبيك ليست على ما يرام ·

— لا تكلمنى عن هذا الرجل · فأنا لا أحبه ·

شعر نور الدين بانه قد مس وتره · فهو لم يخدع · بكل ما يمكن أن يقرأه فى سمير ، هو الكراهية ·

— الى هذا الحد يا سمير · انت تدهشنى · كيف يمكن أن تكره أباك الى هذا الحد ؟

— هل تود أن تعرف ؟ حسنا · الأمر بالغ البساطة · لأن أبى من طرازك ·

سأل نور الدين شاحبا : ماذا تعنى ؟

— لا · لا يتعلق بما تفكر · فأبى رجل يحب النساء · ويشبهك فى أشياء عديدة فى حقده ·

— لا أفهم ·

— قلت لك لن تفهم · لكن هذا ليس مهما بالنسبة لى ·

انها أول مرة يتكلم عن أبيه الى شخص ما · وخاصة هذا الضابط ، ليس هذا الحقد فقط ناحية أبيه ولكن لكل أبناء الطبقة الراقية · أليس نور الدين أحدها · مرتزقة يدافع عن هؤلاء القتلة · الأكثر شراسة من ثعابين الصحراء · لقد نما سمير بين اخوانه الكبار الذين ساروا فى ركاب شرف أبيهم · أما هو فلم يذهب الا قليلا املا فى مستقبل أفضل وأسهل · ألم يود أن يكون محاميا مشهورا ؟ انه يشعر بالغربة فى هذا الوسط المنحط ، القذر ، ولم تستمر رغبته أن يصبح رجلا مرموقا سوى فترة قصيرة · فقد استيقظ يوما وشعر بالغثيان ·

شعر بازدراء لا نهاية له تجاه نفسه · ولكن أليس هذا الازدراء موقفا سلبيا لم يقده الى شىء · فالألم الذى يشعر به يتزلق من شبابه محاطا بهذا العفن الأبدى · يزيد من كراهيته · فهو يرى أن عليه أن يحيا حياة الرجال · لأن أمامه مهمة عظمى ·

لقد حانت اللحظة كى يتصرف · يتردد أحيانا فى اختيار ضحيته الأولى · فبمن سيبدأ ؟

— أعتقد اننى سوف أقتله يوما ·

- من ؟

- أبى أتعرف ان هذا يسليني كثيرا . قل لى سيدى الضابط : هل يمكنك أن تفعل ذلك لأجل خاطرى ؟

أخفض نور الدين رأسه . وبدأ قلبه يدق . قال متنهدا :

- أريد ....

- يا الهى . لقد فقدت عقلك .

- بدأت أفكار ما تشع فى رأسه . يبدو كأنه ينزلق فى بئر عميق . يصرخ أحيانا طفل فى الخارج بصوت قبيح . ينبح ككلب بصوت خائر . تمر عربة ترام فى الممر وهى تطلق رنينا أشـبه بصفارة الانذار . كل هذه الأصوات تنخر فيه كأنها ضباب قادم من عالم غريب بعيد يرفع رأسه كأنه يغرق . ثم شـد ياقته وثبت ناظريه على حائط الحانوت فى ركن علقت عليه لوحة تصور حفـل زفاف شعبى . يقف العريس محاطا بصديقين يحملان باقتين مـن الزهور ، ويقف الموسيقيون فى زيهم الرسمى . ومن الخلف يتكدس المدعوون . لقد بهتت ألوان الصورة . لكن خط الرسم لا يزال يحتفظ بعفويته .

رمق الشاب نور الدين وقال وهو يبتسم :

- هل وصلت العبقرية الى هذا الحد ؟

- ماذا تقصد ؟

- يجب ان تتزوج يا سيدى الضابط .

نظر الضابط اليه بحدة . وهو يفكر انه لا يمكن أن يحتمل مقاطعة سمير . لكن ليس عليه ان يصل الى هذا الحد . عليه أن يهرب من هذا المكان الملعون . يشعر أن الكل يأمر ضده . عليه أن يكون شجاعا ويسأله :

- الن تأت لتناول العشاء معى اليوم ؟

رد سمير : لا .

- الا تود رؤيتى ؟

- اذا كان الأمر يتعلق برؤيتك فلنتناول العشاء فى مطعم .

ضحك سمير ، نظر الحلوانى وقد ملأت الدهشة عينيه . هنا دخل اثنان أو ثلاثة من الزبائن الى المحل . انها فضيحة . وذلك ما يخشاه نور الدين .

- اهدأ . من فضلك . فأنا لا أبغى فضائح .

قال سمير : لست موافقا .

احتج نور الدين : اعتقد أن هناك سوء فهم فيما بيننا .

قام - عدل طربوشه . وبدا أكثر جدية :

- معذرة . أنا مضطر للذهاب . فوظيفتى تناديني . سأراك مرة أخرى . تحياتى . بمنتهى الكبرياء . وبينما ترتعد أهدابه أمام الحلوانى الذى بدا مبهورا . ثم خرج من المحل انه يسرع الآن ، اخترق الحارات المليئة بالأكشاك المصنوعة من الخشب والصفيح . سلك طريقه . فى هذا الحى لا يثير زيه كضابط شرطة مشاعر أحد . فكى يخشى شخص رجال الشرطة عليه أن يكون لديه شىء يخاف فقده . وهنا لا أحد يملك شيئا . فالفقر فى كل مكان . انه المكان الوحيد فى أنحاء البسيطة الذى لا يمكن للسلطة أن تكون محترمة . يعرف نور الدين طبائع سكان هذه المنطقة . يعرف أنه لا يمكن لأحد ان يخرجهم من نومهم الأبدى . لا يحملون حقدا فى قلوبهم . ولا كراهية . فقط هناك احتقار خفى تجاه القوة التى يمثلها . يقال انهم يجهلون ان هناك حكومة وشرطة . أو حضارة متقدمة . هذه الأرواح التى تجرح نور الدين فى أعماقه . وتكشف

له عن مدى ضعف قوته • لا يمكن ان يمنع تعصبهم ورفضهم • كأنما الأمر اهانة شخصية يشعر فى كل خطـوة انهم يخفـــون وجوههم • يتنهد كأنه فريسة • ويشعر انه من الغباء ان يجرى • ابطأ خطاه • هؤلاء الصبية يثيرون الخوف فى قلبه • ويحطمون أعصابه • قرر أن يسير على مهل • وأن ينظر أمامه • كأنه رجـل يفكر فى خطة سينفذها ، لكن هـذا السلوك الذى تصور كبرياؤه قد خيب ظنه • فبينما ينظر يمينه ، سار فوق بركة مياه • فانزلق وسقط أرضا • استند على كشك وهو يفحص حذاءه وأسفل بنطلونه الذى امتلاء بالوحل أحس بالخجل وأنه فقد كبرياءه • لم يتحرك لحظة • لا يجرؤ أن يرفع رأسه ، أى مشهد مضحك قدمه لهؤلاء المتفرجين • تسلط عليه غضب وهو يلعن بصوت خفيض • اعتدل • انتظر أن يضحكوا • لكن أحدا لم يضحك • ربما أن هذا من لون السخرية طرفهم • تذكر احتداد سمير • انه لا يقارن بهذه النظرات التى تتركز عليه كأنها تنزع عنه وقاره وتعريه من الزى الذى يكسبه أهمية • يمكنه ان يدافع عن نفسه ضد حقد سمير • وضد كبريائه • ولكنه لا يعرف كيف يرد على هذه النظرات المليئة بالقسوة والحقد • لا يبدو ــ فيهم ــ شيء يدل على التمرد والكراهية • ينظرون اليه كأنه مخلوق غريب • لماذا لا يقذفونه بالحجارة ؟ انتظر منهم بادرة • لكن أحدا لم يتحرك • دائما هذا السكون والغموض • تقف الآن وسط الحارة فتاة فى السادسة من عمرها • ترفع طرف ثوبها • ادار لها رأسه وأسرع •

تساءل عن معنى هذا المشهد الهذيانى ، بدت له حركة الفتاة كأنها تنتمى الى عالم وحشى انه مشهد خيالى • أخرجه من الركام والعفونة : ملعون أنا • هل حكم على ان أعيش بقية حياتى وسط هؤلاء الرعاع •• شعر بمرارة تسد حلقه وهو يفكر فى الدور الذى سيلعبه • أية عدالة ساقته هنا • هذا المكان الميت • عليه أن يسجنهم

جميعا • ظل نور الدين يتوهم • يعرف انهم أكثر قوة • فقد مــر معهم بتجارب سابقة • يرفضون أن يساهموا فى بناء الحضـــارة • ولا توجد قوة يمكن أن تجبرهم على ذلك •

تذكر أنه يسرع الآن كى يحقق فى جريمة • ضحك ساخرا • هذه الجريمة التى تتعلق بمقتل عاهرة شابة قد سببت له الكثير من الضغوط • لقد تصورها جريمة بسيطة • وعليه أن يوكل بمهمة أكثر أهمية • لكن عليه أيضا ان يعثر على هذا القاتل الذى ينتمى الى طبقة راقية •

تنهد • لقد خرج أخيرا من هذا السعير • ليست هذه حضارة وشيء يمكنه احتماله ها هو فى شارع • شارع حقيقى به سيارات وترام • ملىء بالناس الذين يحسون انهم أحياء • يملأون شرفات المقاهى • يتحدثون وهم يشعرون بالتفاؤل • كأنهم لا يشـــكون من شيء وكأنما الحياة نكتة جميلة • من جديد أحس نور الدين بالمرارة • لماذا يكون هو الوحيد الذى يرى الرعب ؟ فهؤلاء يعيشون كأنهم فى عيد • يريدهم أن يعوا مبادىء عالم يعيش فى أسى • بينما لا يعرفون أى نوع من القهر •

كان الرد سهلا للغاية فهؤلاء القوم لا يخشون شيئا لأن ليس لديهم ما يخشون ، لكن نور الدين رفض أن يقتنع بهذه الفكرة • فهذا اثبات أكيد للفوضوية رأى مخبرا يجلس على شرفة مقهى • اتجه نحوه • قام المخبر من مقعده :

ــ تحياتى لسعادتك •

ــ انه فى الأربعين من عمره • يرتدى معطفا أسود • وحذاء طويلا ذا أزرار صفراء لف شالا فوق رقبته النحيفة • وقد تدلى طرفاه كأنما جناحا غراب • انه أعور • لكن عينه تساوى ثقلها ذهبا • فقد فقدها فى احدى المعارك • سأله نور الدين :

– هل نجحت فى العثور عليه ؟

– يجب أن أقر أن هذا عمل صعب • ومع ذلك استطعت أن أرصده • فابن العاهرة يغير مكانه كل ساعتين تقريبا •

قال نور الدين متعصبا :

– وأين هو الآن ؟

– فى رقم ١٧ فى هذا الشارع •

– انه فندق • ما اسمه ؟ •

– لا أعرف • يسكن فى الطابق الأول • الغرفة أمام السلم •

– يمكنك أن تذهب • لست فى حاجة اليك •

– تحت أمرك يا سعادة البيك •

ترك نور الدين الشرطى الأعور وعبر الطريق • سار ببطء فوق الرصيف بجوار البيوت التى تحمل أرقاما فردية • وعلى بعد خطوات وقف أمام رقم ١٧ • تأمل الواجهة لحظة • يتطلع اليها من الشمال الى اليمين كأنه يخشى أن يراه أحد يدخل هذا الفندق المتواضع • فتح الباب ودخل الممر المظلم • لم يأت عامل الفندق لملاقاته بدا كأنه خاو منذ سنوات • صعد نور الدين السلم تدفعه غريزته • الى أن وصل الطابق الأول • رأى فى الظلام بابا فبدأ يطرق عليه بكامل قبضته •

لم يرد أحد على طرقاته العصبية • أصاخ نور الدين السمع • لم يتحرك أحد فى الداخل • ودون ان ينتظر ادار قبضته • وفتح الباب • ثم دخل الغرفة التى لم يكن بها ضوء كاف •• يسود الظلام عدا شعاع من الضوء يتسرب من النافذة المغلقة الانطباع الأول الذى أحسه نور الدين أن الغرفة خاوية • وشيئا فشيئا

بدأت عيناه تعتادان الظلام • استطاع ان يرى السرير الذى تمدد فوقه جسد آدمى متدثر بغطاء •

– هيه استيقظ •

لم يتحرك الجسد المتمدد تحت الغطاء كأنه جثة • بدأ نور الدين يحس بالعصبية وهو يعتقد ان الرجل قد مات • اقترب من السرير بحذر ورفع الغطاء فرأى الرجل عاريا • ويدق قلبه من الخوف هلعا •

همس نور الدين :

– ليحفظنا الله •

هنا شعر ان زلزالا أصاب النائم •

استيقظ وهو يدعك عينيه ويتثاءب • سأله :

– من أنت ؟

صرخ نور الدين وهو يود ان يحطم كل مقاومة الرجل النائم :

– شرطة •

لكن هذه الكلمة بالغة الأهمية لشاغل السرير • فهو يود أن يعود ثانية للنوم :

– يمكنك ان تبحث فى مكان آخر • فليست هناك قطعة حشيش واحدة معى •

قال نور الدين : ليس الأمر كما تتصور • قم أريد أن أكلمك •

هتف يحيى وقد استيقظ :

– تكلمنى • ياآلهى • سيدى الضابط هذا من دواعى شرفى هل أفيدك فى شىء •

- جئت اليك فيما يتعلق بجريمة قتل ·

- قتل ؟! يا نهار أسود ·

- نهار اسود عليك ·

أزاح يحيي الغطاء كاملا · وجلس على السرير · وقد ثنى ساقية · بدا وجهه بارز العظام شارد النظرات · أشبه بفقراء الهنود أنحله الصوم والتقشف · كرر :

- قتل · ماذا فعلت لأقتل ؟

- سأخبرك · لكن رد على أولا : هل تعرف ان بنتا من بنات منزل الست أمينة قد خنقت منذ عدة أيام ·

قال يحيى : لقد عرفت ذلك

- يبدو انك مألوف بالنسبة للمنزل ·

- فعلا ·

- اذن تعرف أرنبة ·

- بالطبع · فهى أجملهن ·

- حسنا · فنحن متفقان · يمكنك أن تخبرنى أين كنت ساعة الجريمة ؟

لم يترك ليحيى وقتا ليفكر · لم يسأل أين كان ساعة الجريمة واثقا أنه لن يخدعه · رد بطريقة عفوية :

- كنت نائما يا سعادة البك ·

- أين كنت تنام ؟

- لا أعرف · فأنا أنام فى كل مكان ·

- هيا يابن الكلب ؟ الا تعرف شيئا عن هذه الحكاية ؟

- أبدا · بشرفى · لا أعرف شيئا · يمكننى أن اعطيك بعض المعلومات عن تناول المخدرات لكن جريمة قتل · فهذا ليس من شأنى ·

- دعنى أخبرك أنك المشبوه رقم واحد ·

- كنت نائما · كيف يمكن لضابط ذكى مثل سعادتك أن يقترف خطأ هكذا ؟

زمجر نور الدين : دعك من هذه السخافات · سأخبرك على الكلام ·

وضع في حسبانه انه اكتشف السبب · في أحد هذه الأماكن التى يتم فيها استجوابه · ورغم التهديد الذى يحيطه · يتنفس رائحة الغرفة القذرة · القى نظرة نحو النافذة المغلقة · ود أن يفتحها · لكنه خاف ان يدخل ضوء النهار · فالظلام يساعده · ويمنع أن يلحظ يحيى ارتباكه · من الشارع صعدت أصوات العربات · صياح الحوذية وأجراس الترام أعطته هذه المسيرة البطيئة قوة الارادة · سار بضع خطوات باحثا عن قطعة أثاث يستند اليها · جلس على طرف مائدة · سوف تفشل هذه الزيارة اذا لم يغير خطته · فالصعوبة بالنسبة لاستجواب يحيى انه شاب يسخر من كل شىء درس القانون ويتعاطى المخدر · وله علاقات عامة ويعرف الكثير من مساوىء الأحياء الشعبية · لم يصدق نور الدين حدسه · لقد حاول ان يجد دليلا يقوده الى القاتل الحقيقى · يعرف ان هذا الماثل أمامه لا يمكن ان يمارس العنف · ولا يأخذه بجدية · يتعاطى المخدرات ؛ لكنه لا يستطيع أن يقتل ولأن نور الدين يجهل الرذيلة التى من الصعب ان توجد فى شخص جبان كهذا ·

فهل يسمح له هذا أن يأخذ الحياة بهذا الهزل ؟ كما ان هناك بشرا لا يهتمون بالفقر كثيرا ·

من جديد أحس بالمرارة تغزوه . ونظر الى يحيى . لا يمكنه أن يمنع أن يجد فى هذا المشهد ما يثير الرثاء . يبدو هذا الرجل عبثيا وضد الطبيعة وتتناثر السخرية فى كل مكان . قال نور الدين :

ـ لقد انغمست فى قصة قذرة .

ـ معذرة يا سعادة البك . ولكن الدنيا أصبحت أكثر تسلية . أليس كذلك ؟

ـ ما الذى جعلك متفائلا هكذا ؟

قال يحيى : القنبلة .

ـ أى قنبلة ؟

ـ ألم تسمعهم يتحدثون عن القنبلة يا سيدى . هذا يدهشنى . انها شىء يعرفه كل الأطفال . لقد اخترعوا قنبلة قادرة على تدمير مدينة بأكملها . الا تجد هذا مسليا ؟

وماذا عليك ان تفعل ؟ بقى نور الدين صامتا لحظة . محاولا أن يفهم . فهذا الاستجواب سيكون الجنون بعينه .

ـ دعنا من هذه القنبلة الملعونة . فلن يغير من موقفك شيئا .

ـ اذا فكرت سعادتك فى خطر القنبلة قليلا . فماذا يمكن ان يخشى المرء ؟

أصبح الموقف غير محتمل . توقفت ضجة الشارع فجأة كأنما توقفت الحياة للأبد . شعر نور الدين فجأة أنه سيتقيأ وسيفرغ كل ما بمعدته . سأل يحيى :

ـ هل أنت مريض ؟ آسف لما قلت . انت تعرف حكاية

القنبلة . انها نكتة . من الصعب صناعتها كى يلقوها فوق هذا المكان . فهى غالية الثمن . صدقنى .

ـ اسكت أيها القذر . ارتد ملابسك . فسوف نخرج .

قال يحيى متوسلا : فى مثل هذه الساعة رحماك يا سعادة البك . ماذا فعلت لك ؟

ـ ارتد ملابسك يا ابن الكلب .

ـ تحت أمرك يا سعادة البك . لكن لا تدفعنى .

قفز يحيى من سريره وبحث عن ملابسه التى القاها فوق المقعد . ارتدى الملابس بكل حيوية . ثم فتح باب الغرفة . خرج نور الدين من الغرفة يتبعه يحيى وصلاح الى الشارع . تبادلا النظرات لحظة كأنهما يتعارفان بدا يحيى مبتهجا :

ـ هل يمكن أن أدعوك لتناول فنجان قهوة . يا سعادة البك ؟

أمسك نور الدين يحيى من ذراعه ثم سحبه بسرعة وهو ينطق من بين أسنانه :

ـ سوف أجعلك تقدمها لى فى السجن .

(٨)

أضىء وجه جوهر من ضوء الشمعة المرتجفة كاشفا عن المتعة التى يحسها . يجلس فوق المقعد الوحيد فى حجرته ، وقد وضع يديه فوق جبهته . وأسند رأسه ناحية الباب الذى يفصله عن الجار . لقد مر كل ما يامله .. تملكته الدهشة وعت روحه انه الشاهد الوحيد لتصرف شاذ . تستبد به المتعة منذ فترة طويلة ، استعاد جوهر ـ وهو يغلق عينيه ـ كل أوجه حياته . يتبادل بعض الناس الكلمات على الجانب الآخر من الحائط فيطرقون فى رأسه كأن شعلة تضىء ظلمات وعيه .

لقد شغلت الحجرة المجاورة منذ أيام بمستأجرين جدد . انهما زوجان . الرجل قعيد (١) اتخذ من الشحاذة مهنة أما زوجته فامرأة فضولية قوية البدن . كأنها عمارة من عشرة أدوار . تذهب فى كل صباح لتضع زوجها فوق رصيف أحد الأحياء الأفرنجية ثم تعو

(١) الترجمة الأصلية تعنى رجلا بلا ساقين او ذراعين .

لتأخذه عندما يحل الليل · كي تعيده الى الدار · قد يقابلهما جوهر مرة على السلم · فيرى المرأة تحمل زوجها القعيد على كتفيها كأنه اناء كبير ترد على تحية جوهر بصوت أجش قادر أن يجمد الدم فى العروق لشخص لديه شجاعة كافية · تبدو شرسة متعجرفة · هى اقرب الى رجل من امرأة ·

لم يصدق جوهر أذنيه · ارهفها أكثر · وجد أنه من الصعب أن يتخيل الأمر الذى يدور فى الغرفة المجاورة · فالمرأة تقوم بدور الغيرة الأبدى بالنسبة لزوجها القعيد · سمع جوهر القعيد يدافع عن نفسه بحرارة · ضد اتهامات زوجته ويلقى عليها الاتهامات انها ساحرة تأكل الجثث · ثم بدأ يتأوه طالبا الطعام · لكن المرأة ظلت صامدة أمام نداءات بطنه · واستمرت فى اهانته وكيل السباب له ·

بلغ اعجاب جوهر مداه · لم يصدق أن هناك شيئا يمكن أن يثير دهشته · الغيرة من رجل قعيد ، حقا فان جنون النساء لا حدود له · فجوهر يعرف النساء وغباءهن الأكبر وما يسببنه فى العلاقات الانسانية · قادرات على أداء مشاهد الغيرة لحمار · حتى لو كان السبب غير مهم · بدأ يحس فى جيرانه بأشياء تسترعى الانتباه · فهذا المشهد العائلى رغم أنه غير محتمل ـ يفتح له بابا حول الطبائع الانسانية يا لهما من جيران · دعك يديه · وهو يبـارك المصادفة العجيبة التى جاءت له · دون أن يترك غرفته · الى هذا الثنائى الغامض · الذى يعلو على كل ما يتمتع الشر من سخرية الرجل فى كل مكان · وهو شىء عالى ولكنه تخلف عقلى أكثر من أى شىء آخر ويمكن عمله دون أى جهد · أحس جوهر بدناءة عمله · منذ سنوات طويلة · وهو يعيش على نفس الوتيرة وتلزمه فترة طويلة كى يمكن أن يحكم على تجربته : انه أثر بعد عين لقد قام بتعليم الطلبة طوال عشرين عاما كل الفلسفات الكاذبة المعبقة بالغبار · كيف أمكنه أن يأخذ الأمـور بجدية · ألم يكن يفهم ما يقرأه ألم تبد له هـذه

المحاضرات مليئة بالسفسطة ؟ كان الحوار غير مناسب · حاول أن يضع كل شىء فى مكانه · كل نصوص التاريخ القديم والحديث التى آل على نفسه أن يعلمها لتلاميذه مليئة بآلاف الكذبات · يمكنه أن يكذب فى التاريخ · لكن الجغرافيا · كيف يمكن أن يكذب فى الجغرافيا ، حسنا لقد توصـلوا الى معرفة أسباب الزلازل · لكن المنهج يتغير فى كل عام · ويدهش جوهر أنه لم يحذر تلاميـذه يوما من هذه الكذبات كأن كل شىء يدور فى داخله · فقد اقتنع هو نفسه ان هذه الكذبات الرسمية يمكن ان تغدو حقيقة ·

لا يمكن لكل هذه الكذبات سوى ان تبلبل الحياة · وتكون النتيجة عذابا بمقاييس البشر يعرف جوهر ان هذا العذاب ليس جوهرا ميتافيزيقيا · يعرف أنه ليس مصيرا محتوما لكل البشر ولكنه ينبع من رغبة مكبلة · رغبة قوى قد تبدو واضحة وبسيطة · أما العذاب فهو يغرق فى غياهب الظلمات والفوضى · وهكذا تتضح معالم عبثية الحياة · وتحت اسم العبث يمكن أن تقترف كل الجرائم فالدنيا ليست عبثا · وان كانت مثيرة للرثاء · فهى مليئة بأسباب العنف · وعلى كبار المفسرين أن يفسروا العالم للملحدين · ليس عليهم أن يقدموا الظواهر بدون تفسير · يخافون من البدهيات ·

من ناحية أخرى فانهم يخاطرون بتفسير الأشياء بأسلوب بسيط وموضوعى · قام بعض الغاضبين السابقين بتفسير شريف ومنطقى لبعض الظواهر · وقد وجدت هذه الأشياء تأثيرها على الأجيال · ولكن لا يوجد الشجاع الذى يمكنه أن يعبر عن أفكاره بوضـوح · لقد أصبح كبت الفكر هو الأسلوب الوحيد لانقـاذ الانسان من سيطرة الطغيان ·

ليس هذا هو السبب الذى دفع جوهر الى اعتناق أفكار غامضة · لم يترك الجامعة التى كان يقوم بالتدريس فيها · أو شقته فى الحى

الافرنجي الا بحثا عن جذور جديدة للمعرفه · لم يكن يؤمن انه مصلح او نبي · بل يهرب من العذاب الذى يخنقه كل يوم · هذا العذاب الذى يفرق فى داخله اين هى الآن انه هنا تتصارع تياراته أمام ساحل جزيرة صغيرة أوى اليها جوهر · يتساءل كم من الوقت سيظل الحى الشعبى يقاوم الأنفاس المسمومة ، بلاشك سنوات ، ربما قرن ، يا له من حظ يجعله يعيش فى عالم يتلذذ بالقتل · توصل جوهر الى هذه المقولة الهامة : ليس للقوة الدامية أى تأثير على الأشخاص الذين لا يقرأون الصحف · فالعذاب لا يمكن ان يمس هؤلاء الناس · ويبقى الحى الشعبى هو المكان الوحيد البعيد عن العنف · يمكنه ان يعيش فيه حياة صحية تحركها الدوافع البسيطة أما أى مكان آخر فيبقى جنونا · ثم ان هناك عدوى اخرى الاذاعة : فاختراع المذياع يمثل بالنسبة لجوهر أكبر اعلان عن الشيطان · هذا الصندوق الصغير الذى يراه فى كل مكان يبدو أكثر احداثا للضجيج من كل المتفجرات مجتمعة ·

مر وقت طويل أحس بعده أن الصمت قد علا الغرفة المجاورة · أصاخ السمع محاولا أن يسمع صوتها · يود أن يعرف كيف انتهت الأمور · على كل فهو شىء يبدو مرضيا · فالذى يحدث فى الغرفة المجاورة أكثر تهذيبا من كل ما تعلمه سنوات طويلة فمشهد الغيرة هذا يعلن حقيقة هامة · بدائية الانسان · فرغم كل العجز الذى أصاب القعيد · لكن لا تزال القوى الحسية ماثلة فيه · ليس لأنه رجل يبحث عن الجنس ولكن لأنه يأمل ـ مثل كل الناس ـ أن يكون مركز الكون · كاد ضوء الشمعة ان يخبو · ثم بدأ يتحرك ويرتجف · كاشفا عن خواء الغرفة رمش جوهر بعينه وهو يتطلع حوله كأنه استيقظ من النوم لتوه · معجبا بفقر مسكنه · لا يوجد أى أثاث عدا أوراق الصحف التى يستخدمها كحاشية : كومة من الأوراق المكدسة المبللة لم يفكر أن يضع أوراقا أخرى مكانها ·

سوف يطلب بعضا منها من الكردى · الوحيد الذى يشترى الصحف ممن يعرفهم ·

غريب ان يقوم بتنظيم المكان الذى سينام عليه كأن شيئا لم يتغير · كأنه لم يقتل هذه العاهرة الصغيرة · هل غير هذا فى الأمر شيئا فالأمر لا يعدو حدثا · تساءل عما يمكن ان يحدث له وعما اذا كان ما اقترفه قد ارتكبه فى زمن بعيد حين كان يعيش عيشة الأشراف والموقرين · بالتأكيد كان سيعد نفسه وحشا ولا يستطيع أن ينام من الندم · أما الآن فلا أهمية لشىء · أليس هذا تقدما ملحوظا ؟ لقد قطعت هذه الجريمة كل الأواصر التى تربطه بماضيه الكاذب · خلاص حقيقى · لم يستبعد متاعب الضمير · لكنه يؤمن أن كل ما حدث ليس سوى تجربة ·

بدأ القعيد يتأوه من جديد ، أعلن عن جوعه وهو يكاد يبكى · لكنه لم يسمع صوت المرأة ·

ماذا تفعل ؟ تخيلها جوهر تأكل أمام جوهر الذى لا حول له ولا قوة ·

سعل ، سمع طرقا على باب الحجرة :

ـ من ؟

ـ أنا يا سيدى ·

انه صوت يحيى الذى يبدو مبتهجا خلف الباب ·

ـ ادخل يابنى : أهلا وسهلا ·

فتح يحيى الباب · أدخل رأسه أولا · ثم جسده مستديرا حول نفسه فى حركة بارعة متقدما نحو جوهر · حياه منحنيا · ثم فرد قامته وانحنى مرتين أو ثلاثا وكأنه تحت أمره · هناك شىء ما فى هذه التحية التى يطلقها هذا الصعلوك البسيط أحس أن

يحيى يكن له فعلا الكثير من الاحترام والمحبة • لكن احترامات يحيى تبعث دائما على تسليته وقد اعتاد عليها •

قال يحيى عندما لم يأمره جوهر :

ـ أرجو الا أزعجك يا سيدى •

ـ أبدا • هذا يسعدنى • أجلس •

اراد جوهر أن يقوم ويترك له المقعد • عارض جوهر بشدة • وكأنه يخشى ازعاج أستاذه :

ـ أبدا • هذا يسعدنى • اجلس •

ـ أبدا • أنا فى خدمتك • سأجلس أرضا •

تراجع نحو الحائط وهو يرقب جوهر بعينيه • ثم جلس ارضا • وقد عقد ساقيه حول بعضهما تبدو طريقته غريبة • وكان هناك سببا لهذا • يبدو جوهر وقد أصبح فجاة شخصا أسطوريا معلنا عن أمور أخرى تبدى حبه البسيط •

ـ لعلك تسأل ما الذى أتى بى يا سيدى •

رد جوهر : لعلها الرغبة فى رؤيتى •

ـ بالطبع • لكن هناك شيئا آخر •

ـ ليحفظنا الله • خيرا •

تخلى يحيى عن مظهره • وضحك ساخرا :

ـ تملكتنى قوى الجحيم يا سيدى : زارنى اليوم ضابط شرطة • لا أعرف كيف عرف مكانى • كنت أقيم فى هذا الفندق •

قال جوهر : أعتقد انه لم يجد شيئا طالما انك هناك •

ـ لا يتعلق الأمر بالمخدرات • اعتقدت أيضا انه جاء لنفس

السبب • ولكن لا ، فقد ابلغنى انه يبحث عن قاتل • باختصار يشتبه اننى قاتل الفتاة أرنية • ووجه لى هذه التهمة •

لم تبد عن جوهر اية حركة • ليس فى حاجة أن يكشف ما يضره • فالشرطة تقوم بواجبها مسألة اجراءات ولا يهمه هذا فى شىء •

ـ لماذا يشتبهون فيك يا ولدى ؟

ـ يقولون ان القاتل من رواد الماخور • ولأنهم يعرفوننى • فقد قبضوا على • لأننى صاحب سوابق اعتقدوا انهم وجدوا ضالتهم • لكن للأسف • ليس لديهم دليل ضدى •

ـ ماذا قال ضابط الشرطة ؟

أسعد هذا السؤال المنتظر يحيى :

ـ حاول استفزازى • لكننى سخرت منه •

ـ سخرت منه ؟!

ـ طبعا يا سيدى ، توعدنى بأشد العقاب وكى أرد على تهديده حدثته عن القنبلة •

ـ أى قنبلة يا صغيرى ؟

ـ القنبلة يا سيدى ، انت تعرفها جيدا تلك التى يمكن أن تدمر مدينة •

ترك جوهر يحيى يتكلم عن تفاصيل مقابلته بضابط الشرطة • وكان ما حدث شىء عجيب • لكنه الآن لم يعد يفهم • هل وقع صديقه تحت تأثير المخدر ؟ لم يستطع أن يربط بين تهديد الضابط ورد يحيى • هل يلعب يحيى دورا ما • ليس هذا مستحيلا •

ـ كلمنى يابنى • عن دور هذه القنبلة فى الأمر •

— الامر بسيط يا سيدى · حاولت أن أجعله يفهم خطر القنبلة المدمر ·

ولم يكن هذا كل شيء ·

فقد مست هذه الحكاية شغافه وبدا شاحبا · أصابه الخوف بالمرض وأصبحت رؤيته مضحكة · أشفقت عليه أخيرا · أكدت له انها قنبلة تكلف غاليا وانهم لن يخاطروا بالقائها هنا ·

هز جوهر رأسه بكثير من السذاجة ·

— أنت مخدوع يابنى · سوف يلقونها على امهم · فهؤلاء الأقذار لا يحترمون أحدا ·

— أتعتقد هذا يا سيدى ؟

— انه الشيء الوحيد الذى أؤمن فيه ·

— انهم مجانين ·

— لا ، لا تحاول تهوين الأمر · فليسوا مجانين ، بل على العكس · فهم فى منتهى الوعى · وهذا يجعل الأمر أكثر خطورة ·

وبدا يحيى مندهشا · كيف امكن ان يبدى هذه الخيالات · كيف يصدق سذاجة أن القنبلة هى سبب كل المآسى · لم يخدع جوهر أبدا فى محاكمة أولاد العاهرة الذين اخترعوا القنبلة ·

— حدثنى يا سيدى · هل هناك فرصة أن تنفجر بين أيديهم هذه القنبلة القذرة ·

— لا أعتقد · انهم بالغو الحرص · والانتباه حتى لا يحدث هذا الهم ·

قال يحيى خائبا : خسارة · وددت أن تنفجر بين أيديهم وهم يستعدون لتفجيرها · سيكون هذا أكبر نكتة فى القرن العشرين · أحب أن أفرح يا سيدى ·

— كفاك مزاحا · يبدو هذا القرن كأنه قد تجاوز كل القرون الأخرى فى أمور الفاشية ·

— انت على حق · فلا تخش شيئا ·

سكت يحيى · لم ينسه هـذا الحديث عن القنبلة وآثارهـا التدميرية الخطر الأخطر مثولا من القنبلة · لم تخمد نظرات جوهر كأنه يخشى أن يراه متخفيا · جالسا فوق مقعده وقد كشف نور الشمعة عن وجهه · الغرفة خاوية يبدو جوهر مندهشا تماما · لكن يحيى لا يمكن ان يقدر مدى هذه الخسارة فالحب الذى يكنه لجوهر أهم شيء فى حياته · يجب أن يضع نفسه تحت خدمته من أجـل انقاذه · وهذا هو المهم ·

سمع فجأة حوارا يدور فى الجانب الآخر من الحائط · يتوسل القعيد أن تعطيه شيئا يأكله بدا أضعف ما يكون · تبدو تأوهاته أشبه ببكاء طفل حديث الولادة ·

سأل يحيى : ما هذا ؟

قال جوهر : جيران جدد · الرجل قعيد · أما المرأة فأشبه بالحائط · تحمله كل يوم فوق كتفها وتضعه فى مكان من الحى الأفرنجى كى يتسول · وتعود لتأخذه فى المساء ·

وهو الآن يشكرها على هذا الصنيع فبدونها لايستطيع شيئا ·

— هل يتأوه بهذه الطريقة ؟

— أجل يطلب طعاما ·

— لماذا لا تعطيه شيئا يأكله ·

— لو قلت لك يا عزيزى يحيى : فلن تصدق · انها تغير عليه ؟ وفى هذه الساعة تعاقبه ·

ـ مستحيل . غيرة لقعيد . لماذا . هل يخونها ؟

ـ كل شيء ممكن يابني . أما كيف عرفت انه يخونها فلا أعرف . يجب أن ننتظر كل شيء من النساء . حتى مع قعيد . المهم ان يستطيع ممارسة الحب .

ـ لا أصدق . على كل حال فهي تنتقم بطريقة نبيلة . تتركه يتضور جوعا : قل لي الا يمكن أن تفعل شيئا من أجله . لا يمكن ان نتركه يا سيدى . أود أن أكسر فك هذه المرأة .

ـ ليحفظك الله يابني ! انت لا تعرف هذه المرأة انها شرطي حقيقي . أقوى منك بعشر مرات لن تنال منك سوى بلكمة .

أثار هذا الوصف للقعيد الهادىء بعضا من نخوة يحيى .

ظلا صامتين لحظة . بينما يتألم القعيد يتوسل . مما ترك أثرا في يحيى . وأحس بالجوع هو أيضا .

ـ حقا يا سيدى . الا تعتقد انه لا يمكننا أن نفعل شيئا له ؟

ـ لا . فهذا لن يحل المشكلة . سوف تعطيه ما يأكله . الا ترى أن رجلا كهذا أشبه بمنجم ذهب ، ما احساسك اذا غارت عليك امرأة ؟

ـ أعتقد ان أى امرأة لا يمكن أن تغير على . ومع ذلك أشعر بالوسوسة فى كل أعضائى . حتى لو كان الأمر خطأ .

ـ سوف ترى أنك ترغب مثل هذا الرجل .

ساد الصمت . بينما غرق يحيى فى دهشة . هل يهتم جوهر بهذه الأمور العائلية الى هذا الحد يبدو غريبا . وكان خطرا يحيق به . يتابع فرحا وقائع المغامرة الدامية منذ أن دخل حجرته .

ينتظر يحيى أن يصرح له جوهر باعترافه عن جريمته . لكن شيئا لم يحدث لماذا ؟ ألا يعتبره الانسان الذى يمكن أن يبوح له بكل شيء . فهذا الأمر يجعله غامضا يغوص فى شك غريب . هل خدع ؟ واذا لم يكن جوهر القاتل ؟ فان شكه قد نما بعد الظهر حين مشى مع الضابط فى الشوارع الشعبية ، لم يسمع سوى تهديدات الضابط بينما انشغل يحيى بتحية من يعرفونه . عندما تذكر أمرا هاما . لقد قدم له جوهر العزاء فى موت أمه . وهو لم يحدث أحدا عن موت أمه سوى أرنبة . العاهرة . ثم قتلها . اذن فجوهر آخر شخص رآها على قيد الحياة .

ومع هذا فهو يتألم حين يفكر أن جوهر قاتل . تردد لحظة . ليس أمامه وقت يضيعه . يعرف أساليب الشرطة جيدا . ولا يمكن لجوهر أن يدافع عن نفسه اذا وقع تحت استجواب قاس . ومن ناحية أخرى . هل يرغب فى الدفاع عن نفسه ؟

ـ فى الواقع يا سيدى . جئت لأخبرك أن تكون حذرا .

ـ مم يابني ؟

قال يحيى : هناك خطر كبير يكمن هنا .

قال جوهر : ليس الخطر كبيرا كما تعتقد .

لم يحاول أن يفكر . ولم يسأل كيف اكتشف يحيى أنه القاتل . قال بعد لحظة :

ـ لقد عرفت اذن .

ـ سيدى . لا أفهم كيف حدث هذا .

قال جوهر : وأنا لا أعرف كيف أشرح لك . يبدو أن هناك شخصا آخر كان مكانى . لكن لا تعتقد أننى أحاول أن أبرز أن أرنبة كانت وحدها . وطلبت منى أن أسطر لها خطابا ودعتنى الى غرفتها .

وطيلة وقت طويل لم أفكر سوى فى المخدرات · وطريقة للحصول عليها · ثم رأيت أساورها فجـأة · وهى التى بعثت فى فكرة القتل · كان يجب أن أحصل على هذه الأساور ·

قال يحيى : لم تكن الأساور تساوى شيئا كبيرا فى تلك اللحظـة ·

قال يحيى : اذن فأنا المذنب · أعذرنى · كان يجب أن أكون هنـاك عندما تحتاجنى · على كل حـال · فلا يتعلق الأمر بتبرير الحدث · المهم هو ان تهرب بأقصى سرعة ·

ـ لماذا أهرب ؟

ـ حتى لا يقبضوا عليك · هذا الضابط الذى جاء ليرانى · انه شيطان · ولن يهدأ حتى يقبض عليك · أريـد أن أساعدك ياسيدى · اسمع نصيحتى · أستحلفك · لقد تأخر الوقت ·

ـ عزيزى يحيى أقدر مشاعرك · لا أريد أن تزج بنفسـك فى هذا الأمر · سوف أنصرف وحدى ·

ـ لايمكنك أن تدافع عن نفسك مع هذا الرجل · ارحل الى سوريا · انها الفرصة الوحيدة ·

ـ كيف أرحل ؟

ـ سوف أدبر النقود اللازمة لسفرك · اعتمد على ·

ـ ستقتل شخصا · اذن لن ننتهى ·

قام يحيى · ظل لحظة بدون حركة وهو يتطلع الى جوهر · ثم اقترب منه ، انحنى وأمسك يده ورفعها الى شفتيه وهو يقول :

ـ أنت الانسان الوحيد الذى أحبه واحترمه فى هذه الدنيا · يمكنك أن تأخذ حياتى ·

تأثر جوهر · وقد اكتسى بابتسامة حزينة ·

ـ لا تكن جادا يابنى · فهذا سيزيد المشكلة · ثم من أخبرك أن هناك قنبلة سـوف تنظم كل الأمور · فى الغرفة المجـاورة · تتأوه المرأة الآن · تزمر كأنها حيوان يختنق · لم يفشل جوهر فى ان يتكهن ماذا يحدث · قال :

ـ اسـمعت · لقـد انتهى كل شىء · انهمـا يمارسـان الحب الآن ·

ـ أنت واثق ياسـيدى ؟ آه · أريـد أن أرى هذا · انه مشهد صامت ·

قال جوهر : لم أعهدك متلصصا ·

ـ فى حال كهذا يصبح كل العالم متلصصا ·

وبعد لحظة سمعا صـوت اناء من الحديد ·

(٩)

تقدمت الترام رقم ١٢ المتجهة الى الحى الأفرنجى وهى تدق اجراسها · كان على السائق · أن يضغط بقوة على الجرس كى ينتبه المارة الذين يمشون ببطء فوق القضبان وكأنهم يسيرون فى قرية آمنة · ولا أحد يرى المحصل المسكين الضائع وسط الركاب · فقط يسمعونه يطلق صوته الأجش مطالبا أن يفسحوا له مكانا · فهذا كل ما يأمله · فعندما يتعطل الترام يضطر الى النزول لمراقبة السيارات واصلاح العطل· أما بالنسبة لدفع ثمن التذكرة · فهذه ليست مسألة نقاش ·

وقف الكردى يشعر بالمرارة لوجوده فى مثل هذا المكان البدائى · عليه أن يهرب من هذا الترام اللعين الذى يسير بطريقة مزعجة · لقد تأخر الوقت ، وكل المحاولات مكتوب عليها الفشل نتيجة لهذه الحشود الآدمية المكدسة على الأبواب · تذرع الكردى بالصبر ، ليس عليه سوى الانتظار · طبقوا طربوشه أثناء زحمة

الصعود · فالتصق تماما فوق راسه ولم يحاول ان يدفعه · وجد نفسه محاطا بموظف صغير نائم يرتدى عوينات · وامرأة بدينة ترتدى ملاءة لف · تنبعث منها رائحة الثوم · ورغم أن هذا الأمر ليس من خصال الكردى · الا أنه بدا فى اثارتها محاولا تناسى وقفته التى يرثى لها · حاول أن يدير رأسه كى يعرف سن المرأة قبل أن يثيرها · ولكن ما رآه أصابه برعشة · فوقف جامدا فى مكانه · فالمرأة البدينة تزيد على الستين عاما تبتسم له بطريقة مبتذلة · وهى تكشف عن فمها الخاوى من الأسنان · وهى تستكمل مهمتها بينما وقف الكردى متسمرا فى مكانه ·

الساعة الآن السادسة مساء · والركاب يتزايدون · سحبت المرأة ساقيها لكن رائحة الثوم لاتزال تنبعث منها · ود الكردى أن يتقيأ · أغلق عينيه وحاول أن يركز انتباهه فى صوت الجرس الذى يطلقه السائق دون توقف · انه ليس متجها الى نزهة ليجد نفسه فى ترام كهذا · فى طريقه الى الحى الأفرنجى يضع الكردى فى رأسه فكرة أخرى · فمنذ أن اتهمته عشيقته بقتل أرنبة وهو يؤمن أنه مضطر أن يرتكب جرما يكافىء به كذبها · يمكنه أن يسرق · فى هذا المساء فكر فى خطة موضع تنفيذ · يعرف الكردى ــ وهو ماثل أمامه دائما ــ أفخم محل مجوهرات فى المدينة · يقع فى شارع فؤاد ، ويعتقد أنه بالغ الدهاء كى يستولى منه على جوهرة غالية الثمن تردد فى الطريقة التى عليه أن يتبعها · فرغم غثيانه الا أنه حاول أن يتذكر كل ما يتعلق بالجواهر التى يقرأ عنها فى المجلات المتخصصة ، أو الروايات البوليسية · ما الأسلوب الأمثل ؟ يود الكردى أن يحقق جديدا فى هذا المجال · فعلى ثورى مثله ألا يتبع نفس طرق اللصوص المتشردين · فحبه العظيم يدفعه · لكن لا توجد فكرة ماثلة فى ذهنه ·

شعر فجأة بعينين تنظران اليه · فتح عينيه وتأكد من صدق حدسه · فهناك شخص يتامله بدقة · شخص يشع البؤس فى وجهه · الأعور الجالس قريبا من الباب المواجه له مباشرة ·

تألم الكردى وهو يشعر أن الأعور يحملق فيه بعينه العوراء · كأنما العين السليمة لم تعد ترى ·

ظل الأعور ينظر اليه بحدة · وقد شع الهذيان من عينه الوحيدة · لكن الكردى لم ير سوى العين العوراء فلا تتلاقى نظراتهما قط · استغرق هذا المشهد بعض الوقت · تساءل الكردى عما يوده هذا الرجل · فهو لم يره من قبل · شعر بالعصبية وهو يحاول أن يتلافى الرجل ويفكر فى موقفه المثير للاستفزاز · وفى مدى تخلصه من هذا الموقف : سوف أبصق على وجهه ولذا اذا كان ينظر الى · ولكنه خشى أن يثير قلاقل فى نفس اللحظة التى يستعد لارتكاب جريمة سرقة جسورة · يحتاج فيها الى أعصاب باردة ·

توقف الترام فى محطة · ثم تحرك من جديد · رأى رأس المحصل تخرج فجأة عند الباب ياله من رجل ماهر استطاع ان يؤدى هذه الحركة · صاح ·

ــ من لم يأخذ تذاكر ؟

لم يرد أحد على هذا السؤال · يبدو المحصل نحيفا · ذا وجه شاحب يرتدى ملابس غير مهندمة · بدا وقحا وهو يهدد بايقاف الترام · فيخرج الركاب نقودهم مغتاظين كأنما يدفعون للمحصل غرامة · تحركوا جميعا عدا الأعور · فهو لا يزال يركز نظراته على الكردى بعينه الوحيدة ·

وجه المحصل كلامه اليه وقد فرغ صبره :

ـ أنت يارجل .

رد الأعور بلهجة جافة دون أن يدير رأسه : مخبر .

تصور الكردى أن الترام سيقف وان كل هؤلاء الركاب سيقفزون منها . تقدم نحو الباب وقفز من الترام فوق الرصيف . عندما وقف يسترد انفاسه . كانت الترام قد اختفت تماما كأنه كابوس يتلاشى . فقد أحس بالصدمة وهو يسمع الأعور يعلن عن هويته . أى خوف اعتراه : حمداً لله أنه وقع فى طريق مخبر غبى كهذا . لكن لماذا كان يرقبه ؟ ليس ـ بالتأكيد ـ لأنه يعتزم سرقة جواهرجى . فهو لم يتخذ قراره بعد . فلا يمكن للشرطة أن تقرأ أفكار الناس . فلو كان يرقبه فهناك سبب آخر . لم يتأخر في بلوغ السبب . فالشرطة تعلم أنه ثورى . وقد أخبر الضابط بهذا أثناء الاستجواب فى الماخور . وعليه فان الأعور يقوم بمهمته ابتسم الكردى فخورا وهو يتنهد . وشعر كأن نشوة تملأ رأسه . اذن فهو ثورى حقيقى . تطارده الشرطة . ويثير قلق السلطات العليا . ولن يسخر جوهر ـ كالعادة ـ منه عندما يعلم أية مراقبة رهيبة ترصدته . أدار رأسه فى عدة اتجاهات كى يرى اذا كان يتبعه أحد . ولكنه لم ير اى أثر للأعور غمرت الأضواء شارع فؤاد فى وسط الحى الأفرنجى الذى سار فيه الكردى بخطى مضطربة واحساس بالقلق انه يسير فى مدينة أجنبية . يتساءل دوما عما اذا كان فى بلده . لايصدق . يبدو كل رجال الأعمال كأنهم خارجون من كوارث . وتحمل الوجوه بعض علامات التحذير . ترى ماذا ينقص هذه الحشود الغفيرة . يتعجب من سلوك هذه الجموع التى اعتادت ان تسير حياتها .

يأسف لتلك الحارات المليئة بالطين والحصاه . هناك الكثير من الآمال فى الأكشاك المصنوعة من الصفيح فوق أرصفة رطبة . يعيش أعداء الشعب فى هذا الحى . انهم قلعة الضغوط . الثراء الواضح فى واجهات المحلات . وأبهة معروضات الأرصفة . كل هذه الأشياء تخطر بباله . فهم الكردى لماذا يكره جوهر هذا الحى .

رأى بائع صحف صغيرا فخرج من كآبته واستعاد عالمه .

ـ ياصغير . هل معك الصحيفة اليونانية ؟

ـ اتقرأ اليونانية ياسيدى ؟

ـ أجل . لماذا لا أقرأ اليونانية ؟

ـ يا الهى . كل شىء ممكن فى هذا البلد .

اشترى الكردى نسخة من جريدة المدينة الوحيدة التى تصدر باليونانية طواها ودسها فى جيب سترته . انه فى حاجة أن يمارس هذا الغباء . كل هذه الأمور الجادة تثقل عليه كأنها اهانة موجهة لشعب كهذا . أراد أن يهرب من القلق الذى يكتنفه . وقد أنسته المبالغة التى سببها للبائع الصغير خطته .. يالها من نكتة . حان أوان التصرف لقد وصل الى هدفه . وأصبح الجواهرجى على مسافة أمتار .

تذكر تلك الكلمة التى قرأها فى مكان ما . ولم يستطع أن ينساها . « المصادرة » . تمثلت الكلمة فى ذاكرته . لن يذهب ليسرق بالطبع . ولكن « ليصادر » هذه الفكرة أقامت الطمأنينة فى قلب اللص . رغم أن هذا لم يغير موقفه بسهولة . بالتأكيد فان الصعوبات تتغير . ولايزال الكردى أمينا لأفكاره الثورية . وبدت له محاولته الآن بداية عصر جديد من النضال الطويل الدامى مثل الشعلة الخالدة التى لاتنطفىء الا بحرية الشعب .

أثرت فيه عظمة تجربته حتى كاد أن يبكى تقدم نحو واجهة المحل . كأنه قد ألف هذه الأمور ليس سوى أداة للشعب وقد قرر الانتقام . توقف . كأنه الميدوزا فى مياه المحيط يشاهد الجواهر تلمع أسفل عينه . وقد بدأت تعكس أشعتها الغريبة على عينه رأى الكردى نفسه غارقا فى حكايات السحرة . وانه وحده قد وقع على هذا الكنز الضخم . وعاهى شجاعته تثقل عليه كأنها حجر ثقيل . أيسرق ؟ هذا صعب لكن كيف ؟ كيف يمكنه أن ينال احدى هذه الجواهر التى يشعر انها أبعد من نجوم السماء . هذه المرارة التى يحسها مقابل سذاجته تدفع بالدموع الى عينيه تذكر عشيقته المريضة التى تنتظر حضوره لنجدتها . تأمل كنوز واجهة المحل بعينيه المبللتين . وهو يفكر أنه بثمن احدى هذه الجواهر يمكنه أن ينزع نايلة من مصيرها المجهول . وان ينقذ الفتاة من الدعارة ويؤكد لها حياة شريفة عى الآن أمر قوى وواقعى . يبحث يائسا عن طريقه . فهذه الجواهر لا تزال بعيدة .

وتبدو منتمية لعالم آخر أحس بقوتها . ضم قبضته . ورفع ذراعه كى يحطم الواجهة . عبقت رائحة النرجس متسللة الى خيشومية مؤكدة وجود امرأة بجانبه . توقفت ذراعه . خانته أعصابه . غمرت وجوده فرحة كبيرة . فهذا العطر كاف تماما أن يخفف من غلوائه دون ان يدير رأسه . ألقى نظرة جانبية على المرأة الواقفة الى جواره . ساكنة . مهيبة . بدت مشدوهة بالثراء الماثل فى واجهة المحل بنت بلد أنيقة . لفت ملاءتها جيدا على جسدها فأبرزت مفاتنها . رغم ان وجهها ظل مختفيا أسفل البرقع الحريرى الأسود . كشفت عيناها المدعمتان بالكحل عن جمال باهر مثل هذه المرأة كفيلة ان تثير مشاعر الكردى الذى غاص فى جلده . بدت مشغولة بعقد من الماس بدا لها انه الشىء الوحيد المعروض فى الواجهة .

سحر هذا المخلوق الكردى تماما أعجزه عن التفكير . ثم تملكه الخوف أن تذهب مما دفعه أن يقول بصوت هامس :

ـ أعتقد أن هذا العقد قد أعجبك .

تلفعت المرأة كأنها ثعبان . وقالت :

ـ لكن أين الثرى الذى يقدمه لى ؟

لم يجد الكردى شيئا يرويه هذه الدعوة الزكية . فالمرأة عاهرة . ولكنها عاهرة من درجة راقية . لن يقدم لها ـ بالتأكيد ـ العقد الماسى . ولا حبة ذرة مشوى . من تتصوره فكر . انه يتصرف كتاجر . وهو لايخشى شيئا . فليس لديه شىء يفقده فى مغامرة . لاتشك هذه الأنثى الغبية فيمن تتحدث معه . لايملك لها شيئا انه يحب النساء كثيرا ويعرف خصالهن ويجيد التصرف معهن .

الآن آمن أن القدر لم يسقه الى هذا المكان الا ليقابل هذه العاهرة التى تبدو أرستقراطية . بحث بسرعة عن دعابة كى يستمر الحديث ويعمل على اضحكاها .

لكن المرأة لم تترك له الفرصة . تركت واجهة المحل بسرعة . وذهبت مسرعة كأن شخصا أهانها . لعلها فهمت أن صمت الكردى قبول . هل صدقت حقا أنه سيشترى لها عقد الماس ؟ أى جنون تبعها الكردى . لم تكن وحدها . فتاة صغيرة ذات ضفائر ربطتها بشريط وردى وترتدى قبقابا خشبيا . رأى الكردى أن الفرصة سانحة . فالصغيرة عامل هام كى يتعرف بسرعة على المرأة . تابعها بخطى سريعة ثم سار فى حذائهما منتظرا اللحظة القاسية ليدخل . يمكنه الآن أن يتكلم عن أناقة المرأة التى تهز مؤخرتها . وتقرقع رصيف الشارع بكعب حذائها العالى . تسير كأنها نائمة . تنظر الى الأمام . تختلف عن تلك التى باحت برغبتها . بدا مرتبكا

بصورة لم تحدث له من قبل فى علاقته بالنساء · يعيش الكردى لحظات حاسمة لقد نسى كل أفكاره عن الشعب الفقير والثورة · وانقلاب القوى الغاشمة · يمكن لكل هذا أن ينتظر · فهو الآن مشغوف باصطياد هذه الفريسة · ارتجف وهو يتخيلها بين يديه ·

ود ان يولى اهتمامه الى الصغيرة التى امتلأت نظراتها بالانتقاء والغيرة · استعد لدخول المغامرة · أدخل يده فى جيبه الملىء باللب وبدأ فى شخشختها · ثم مد يده المفتوحة بكل براءة نظرت الفتاة الى يد الكردى دون أن تجرؤ على لمس اللب ·

ـ خالتى !

سألت المرأة بلهجة حادة : ماذا ؟

بدت كأنها تتجاهل وجود الكردى !

ـ هل يمكن أن آخذ ؟

ـ ماذا ؟

ـ اللب ·

ـ خذيه · كما تشائى ·

استدارت الفتاة نحو الكردى وقال :

ـ خذى ·

ثم سكب اللب فى جيب الفتاة · بدأت الفتاة فى قزقزتها متعمدة · داعب الكردى شعرها بحنان أبوى انهما يمثلان الآن أسرة واحدة تقوم بنزهة ·· شعر الكردى بنشوة النصر · وانه ليس

بعيدا أن يتزوج الآن من المرأة التى بجانبها · لايهم · فهو قادر على كل شىء · لم يقابل أبدا غانية لها نفس الجمال والأناقة · انها فرصة حياته لم يصدق انه حصل عليها · فهو لا يحب الفشل ·

ورغم ان المرأة تجاهلته الا أن الكردى يملؤه الامل · استمر فى مداعبة الفتاة :

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمى نجفة ·

قال ملحا : اسم جميل · هل تحبين اللب ؟

ـ أجل وآكله دائما ·

ـ حسنا · فى المرة القادمة سأشترى قرطاسا كبيرا ·

هنا توقفت المرأة · واجهت الكردى وقالت بثبات ·

ـ أعتقد أن الوقت حان لنتكلم بجدية ·

فوجىء الكردى بهذا الهجوم السريع فتلعثم قائلا :

ـ بالطبع · فأنا أنتظر هذه الفرصة ·

عليها أولا أن تطرح سؤالا · ثمن سحرها ! فهم الكردى ان عليه أن يلعب بجدية · ليس مستعدا ان يدفع لها أو يشترى شيئا ·

سألت المرأة : ما هى نياتك ؟

قال الكردى مؤكدا : أحسن نية فى الدنيا · تحت أمرك · عليك أن تأمرى ·

ـ أين ستأخذنى ؟

— فى منزلى · لدى شقة تليق بك · أنا واثق انها ستعجبك· خاصة أثاثها الحديث · حاول أن يتجنب الأسئلة الجادة · يبدو أنها لاتصدقه :

— فى أى حى هذه الشقة ؟

— فى المنشية · على مسافة خطوات من هنا ·

— اتسمى هذه الخطوات انها بعيدة · آسفة · لا أستطيع ان أجىء :

— بشرفى · أؤكد لك انها ليست بعيدة · ثم لا تقلقى · فسوف تقضين الليلة · هناك الشقة كبيرة وستقيم الصغيرة فى الصالة ·

نظرت اليه مدققة : أقضى الليل هل انت ترى الى حد أن تدفع ثمن الليلة · يا الهى · ماذا تنظرته · لم يكلمنى أحد هكذا · هل أبدو ضائعا · أنا موظف كبير فى الحكومة بدت المرأة مترددة وأخذت تفكر ·

— أود أن أصدقك · لنركب عربة حنطور ·

بدأ الكردى يحسب النقود التى فى جيبه · انها لا تكفى لعربة حنطور · تنهد بصوت خفيض ملىء بالخجل لكنه لم يسمع أى رد على ندائه · قال :

— سنجد وسيلة · لنسر · الا ترين أن الجو جميل ؟

لم تكن المرأة غبية · فسرعان ما فهمت :

— تنزه وحدك · يا موظف الحكومة ياعرة ·

وذهبت · تعلقت الصغيرة بملاءتها الحريرية وقد بدا عليها الكبرياء ·

نظر اليها الكردى متحسدا · لم يصدق أن حلما جميلا انفلت · سمع الضحكات تتعالى من حوله · أطلقها بعض المارة الذين تبعوها بدافع التسلية ويرون الآن خيبته استدار الكردى ناحية هذه الضحكات · نظر اليهم بكبرياء · وعاد مرة أخرى الى تعاليه ·

رغم أن بيت الست أمينة قد أعيد فتحه مرة أخرى منذ أسبوع· الا أن الكثير من الرواد لم يجرؤوا على دخوله مرة أخرى · يجلس القليل من الزبائن فى الصالة كأنهم أتوا لحضور جنازة أحسوا أنهم يقعون فى فخ · ولم يخدعوا فى هذا ·

تم الاتفاق بين السلطة والست أمينة على استعادة أعمالها · تمنى نور الدين ان يعود القاتل · كالعادة الى مكان الجريمة · وان يكشف الشخص الذى يبحث عنه · ومن هذا المنطلق كلف أحد افضل أتباعه أن يذهب الى الماخور مدعيا أنه ثرى كبير · يعود فخورا كل مساء منذ أن فتح المنزل مرة أخرى · يتصرف كفلاح قادم من الريف باحثا عن المتعة فى العاصمة · يعتذر فى اللحظة الأخيرة عن مرافقة احدى البنات الى حجرتها · أثار هذا السلوك الأقاويل حوله · من ناحية أخرى فقد كشفت أسئلته عن سره · والجميع يعرف الآن انه مخبر · أدركت الست أمينة السر منذ أول لحظة · لكنها تصنعت الجهل · ماذا عليها ان تفعل ؟ · الآن تجلس فوق أريكتها كالعادة · تنظر الى المخبر يتحدث مع عقيلة ·

بدأت تشكو لأحد الزبائن الذين يجلسون قرابة منها على الأريكة · يحدثها عن حسرة العصر الذى أصبحت فيه عاهرة غير مطلوبة ·

— هأنت ترى ! يريدون أن يحطمونى · ألن يذهب هذا الرجل أبدا ؟

— اهدئى يا امرأة · سواء كان مخبرا أم لا · فهو على الأقل زبون ·

— زبون ليخلصنى المرض من أمثال هذه الزبائن ·

— اسكتى · يمكنه أن يسمعك ·

— ليسمعنى · فأنا سيدة البيت ·

توقفت عن البكاء · أسندت يدها على وجنتها — وهي التى اعتادت الحديث عن متاعبها · ولم تنشغل بالمخبر كثيرا ·

نسى جوهر أرنبة تماما · جلس فوق مقعد كبير وهو يراجع الأرقام المدونة داخل مربعات فى كراس مدرسة ذات غلاف أصفر استعاد وظيفته سعيدا كرجل أدب فى خدمة العاهرات · أما سحابات الماخور فهى شىء بسيط · ولا تتطلب أى تركيز ذهنى · يرفع رأسه من وقت لآخر كى يتشرب بهذا المزيج من النقاء والخصوبة فبدلا أن يقلقه تواجد المخبر · الا أنه جعله يشعر بالأمان · فهذا الرجل يبعث على تسليته ، يضايقه بهذه الأسئلة السخيفة · ألم يدرك أن الجميع قد عرفوا حقيقته منذ فترة طويلة ؟ شعر جوهر بالمتعة · وهو يرى شرطيا · فى مهمة يحاول حلها دون أن تبدو فيه الغلطة · وما يفعله يتضارب مع عمله ·

أحس جوهر أن خطر القبض عليه قد قل وانه ليس بنفس الصورة التى تحدث بها يحيى فقد أثر فيه تصريح هذا الأخير — وطلبه أن ينقذه بكل ما به من صفاء · فيحيى قادر ان يبيع حتى ملابسه ، كى يوفر له ثمن سفره وقد يرتكب أى شىء غير

قانونى · وأن يحدثه عن كل الاحتمالات المتعلقة بانقاذه ؟ انه ضعف أمام هذه النداءات المليئة بالمحبة · ثم ألم يفده يحيى بحياته ؟ هل يمكن ان ترفض خدمة رجل يطلب منك ان يفديك بحياته ؟

سيكون هذا نقص شعور · واهانة للصداقة ·

آه لو استطاع الهرب · وسافر الى سوريا · يتخيل حقول الحشيش الواسعة وهو يقوم بزراعتها . هذا النبات الرائع بهاتين اليدين اللتين خنقتا العاهرة الصغيرة · لكن هذا الحلم الشرير لم يستمر سوى لحظة ·

— جوهر أفندى ·

يناديه المخبر · وهو يستكمل غزله لعقيلة · استدار ناحية جوهر كى يسدى اليه نصيحة بصوت عال قال جوهر ؟ وكأنه الآن فى بيت ملىء بالجلادين · رفع الكردى المنديل ووضعه فى جيبه وجلس قريبا من جوهر قال له همسا ؟

— لا شىء · كنت أتخفى ·

— لماذا هذا الغموض ؟

— انهم يطاردوننى يا سيدى · يعرفون أننى ثورى ·

— من ؟

— الشرطة · انها تطاردنى · أنا واثق · اسمعنى ياسيدى لقد ركبت الترام هذا المساء كى أذهب الى الحى الأفرنجى ·

كان هناك ازدحام شديد · كدت أن يكسر عظمى لم أستطع أن أحرك اصبعا · وبينما أقف فى مكانى · رأيت رجلا يجلس

امامى ينظر الى بريبة · بدا مرعبا · فالرجل أعـــور · وبعينه العوراء يرقبنى · ولك أن تتصور الرعب الذى شعرت به ·

ـ مالذى جعلك تتصور أنه شرطى · ربما ليس اكثر من رجل أعور ·

ـ دعني أروى لك الباقي · فهى قصة عجيبة · عندما جاء المحصـــل ليبيع التذاكر · قال بلا شــك وبكل غبـاء رد مخبر وبكل بساطة ·

قال جوهر : غريب · أعتقد انك انفجرت ضحكا ·

ـ كيف أضحك يا سـيدى ؟ لقد قفزت لتوى من التـــرام وهى تسير ·

سأل جوهر : لكن ماذا كنت تفعل فى الحى الأفرنجي ؟ ·

ـ لقد أخبرتك اننى سأدبر مالا · ذهبت الى الحى الأفرنجى كى أسرق من جواهرجى فى شارع فؤاد ·

ـ وهل نجحت ؟

قال بمرارة : لم يكن الأمر سهلا كما تصورت · واعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يفعل · فى الواقع فلم يكن يفكر فى واجهة المحل المليئة بالجواهر · ولكن فى تجربته الضائعة مـع المرأة · كانت تود عربة حنطور · كاد أن يروى الحكاية لجوهر ولكنه تراجع فهذا الأخير يعامله كثورى ·

ـ ولماذا تحتاج الى مال ؟

ـ ليس لى ياسيدى · فانا أستطيع أن أعيش فقيرا · لكن

نايلة مريضة وأريد أن أنتشلها من هذا المكان الملعون · ثم هناك اخريات ·

ـ وأى أخريات · هل لك أسرة ؟

ـ لا · ليس لى أسرة · أفكر فى هذا الشعب المطحـون البائس · ياسيدى لا أفهم كيف تظل ساكنـا ازاء الأقدار الذين يفسدون هذا الشعب ؟ كيف يمكنك التغاضى عن القهر ؟

ـ أســمعك ·

أرضى الزبائن الموجودين فى صالة الانتظار ما سمعته آذانهم : فكل ما يقوله المخبر يهمهم جميعا ·

قال الشرطى :

ـ عملية قتل البنت أرنبة تذكرنى بحكاية قديمـة حـدثت فى ماخور أيضــا · لا أعرف هل تذكرها · لقد تذكرت بعض تفاصيلها فجأة ·

ـ فكلمه هذا الغبى ثانية عن الجريمة · سعل جوهر وأمسك عصاه وقال بلطفه المعتاد :

ـ آسف لا أذكر شيئا ·

ـ انها حكاية حدثت قبل الحرب · تكلموا عنها كثيرا فى تلك الآونة · تتحدث عن عاهـرة قتلت بطعن السكين · وعنـــد تشريحها اكتشف الطبيب الشرعى أنهـــا عذراء · الأكثر غرابة انها ظلت تمارس مهنتها عشرين عاما · ما رأيك ؟

أضاف جوهر : غير معقول ·

ـ اليس كذلك ؟ لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فيها . عاهرة عذراء اليست لديها أية ثقة فى أحد ؟!

قال جوهر : حتى العاهرة تخفى ما يثير الدهشة .

ـ تعجبنى فلسفتك . أرى انك رجل خابر الحياة جيدا .

ضحك الشرطى ضحكة غليظة دافعا اياها وهو يقبلها فى فمها بطريقة وحشية . ضمنت عقيلة أنه على وشك أن يفقد أنفاسه. الى اللقاء يا جوهر أفندى .

ـ تفضـل .

قالت الست أمينة : أخيرا . قرر . السـافل على الأقل فلن يتسلى فى بيتى دون أن يصرف شيئا . عاد جوهر الى حسابه . لقد أثارته الحكاية ويمكن أن تحدث . هذه البكارة التى تفض الماثلة فى جثة العاهرة القتيلة . الا تعتبر أغرب من جريمة ؟ حل جوهر اللغز . عليه أن يأخذ هذا العالم الساخر بصورة جادة ؟ سوف يثير هذا جنونه . سنوات طويلة من الجنون .

ـ كنت اعرف ياسيدى أننى سأجدك هنا . فلدى شىء هام اريد ان أخبرك به .

ظهر الكردى فى قاعة الانتظار . يكاد الطربوش يلمس أذنه . وقد غطى أسفل وجهه بمنديل يمسكه بقوة كأنه يحبس به دما .

ـ ماذا بك يابنى ؟ هل جرحت ؟

رفع جوهر صوته وهو يرد عليه :

ـ لم أنكر وجود الأقدار يابنى .

ـ ولكنك تكافئهم . أنت لم تعمل شيئا لمحاربتهم .

ـ ليست صحتى موافقة . أنا أحاربهم أكثر منك .

ـ بأى طريقة ؟

قال جوهر : بعدم التعاون . أرفض كل أنواع التعامل لكل هذا التحلق المتناهى .

ـ لكن الشعب لايقر هذا الموقف السلبى . عليهم العمـل ليعيشوا . كيف لايمكنهم الا يتعاونوا ؟

ـ ليصبحوا جميعا صعاليك . ألست صعلوكا . عندما تكون بلدا يصبح فيه كل الشعب صعاليك . فسوف ترى ماذا سيغدو هذا العالم . سوف يسقط فى الوحل . صدقنى . انها المرة الأولى التى يسمع الكردى جوهر يتكلم بلغة عنف مماثلة . يعرف أن لديه أفكارا حول انقلاب السلطة البغيضة . لماذا لم يقل شيئا من قبل ؟ قال :

ـ نحن شعب من الصعاليك . يبدو أن هناك أشياء كثيرة علينا أن نفعلها .

ـ أجل . أمامنا أشياء كثيرة نفعلهـا . هناك ناس مثلك يتعاونون .

ـ أنت مخدوع ياسيدى لا أعمل شـيئا . فانا متمرد فى الوزارة .

ظل جوهر صامتا ، انه لا يرضى عنه . أية حاجـة له فى الدفاع ، وأن ينكر وجود الأقدار وهو الذى تخلى عن كل شىء . الراحة . والسعادة . كى لايشـارك هؤلاء الأقدار . ماذا يعتقد

الكردى اذن ؟ ليكن الوحيد الذى يعرف بؤس الشعب الذى تسيطر عليه عصابة من اللصوص والداعرين رغم أن طفلا يعرف هذا . ابتسم وهو ينظر الى الشاب قال وهو يداعبه :

ـ لتعرف أن هنا مخبرا يمارس الحب مع الصغيرة عقيلة .

قال الكردى يا الهى حقا . على ان أكون حريصا .

قام فجأة كأن المكان أصبح خطرا بالنسبة له .

ـ آسف على الجرائد يا سيدى سوف أحضرها غدا .

ـ شكرا يابك . يمكن ان أنتظر .

ـ خذ هذا . لقد قرأته .

أعطاه الجريدة اليونانية .

كانت الست أمينة تنظر اليه بريبة . أطلقت تنهيدة وهى تراه يقترب منها :

ـ هل نائلة فى غرفتها ؟

ـ دعها تعمل . هل تريد أن تحطمنى ؟

ـ لن تحطمى اليوم يا امرأة ها هى . عادت نائلة من الصالة دون أن يعير الكردى أهمية . نظرت الى الست أمينة وأعطت لها النقود فوضعتها فى صدرها . قال الكردى :

ـ تعالى لغرفتك ، ياعزيزى . فعندى كلام لك .

قالت نايلة دون أن تنظر اليه : دعنى . أنا هنا لأعمل وليس لأسمع حكايات قالت الست أمينة : اذهبى يا فتاة . هـذا الوالد مجنون . ولا أريد فضائح .

ـ لا ، ياخالتى . لن أذهب . لا أعرف هذا الرجل .

جلست على الأريكة قريبـة من الست أمينة باحثة عن حماية فى وجودها .

لم يفهـم الكردى سبب هذا البرود المفاجىء لماذا تتجنبه ؟ أخذ مقعدا وجلس أمام عشيقته وقال :

ـ يجب الا تعملى . قلت لك استريحى .

ـ هل ستؤكلنى ؟

بدا الأمر تحديا . فهل يتعلق الأمر بالأكل . قال بصوت مرتبـك :

ـ الشرطة تطاردنى وانت تتكلمين عن الاكل .

قالت الست أمينة : اسكت . لا تتكلم عن الشيطـان . فهو ليس بعيدا .

عاد المخبر . وهو يتأبط ذراع عقيلة مزمجرا كأنه الرجـل الوحيد القوى فى الحى كله .

همس بكلمات حب فى اذن الفتاة وابتسم للحاضرين كأنه يود أن يعتذر عن المتعة التى نالها منذ قليل .

استدار الكردى بهدوء نحوه وقال يتودد :

ـ اذا كان هناك رجل شرطة فى هذا البيت فأريد أن أعرفه .

هتف ذلك الذى يدعى انه فلاح قادم من الأرياف وهو يمثل دور الشريف الذى يخاف من وجود الشرطة :

ـ شرطة هنا ياله من نهار أغبر .

قال الكردى وهو يشير له بأصبعه : يبدو انه أنت ·

تعجب الرجل :

ـ انت غلطان يا أفندى · فلست سوى تاجر شريف ·

تدخلت الست أمينة لاتهن زبائنى · هذا رجل نبيل وأنا أعرفه ·

قال الكردى وقد تسلطت عليه صرعة غريبة : انت التى قلت ان هناك رجل شرطة فى البيت ·

صرخت الست أمينة : أنا ؟ أيها الجاحد · وأنا الذى أعاملك كابنى فى هذا البيت ·

قال الشرطى : اهدءوا · أيها الناس الطيبون · هناك سوء تفاهم بسيط ·

قال الكردى : لافائدة · أنا مستعد أن أتكلم ·

ـ تتكلم عن ماذا يا أفندى ·

ـ اعترف أننى قاتل الفتاة أرنبة ·

فتح الشرطى عينيه وقد اكتسى وجهه بتعبير غريب · تجمدت نايلة لحظة · ثم انفجرت باكية · تأمل جوهر المشهد من مكانه وهو يبتسم · بالتأكيد لن يتغير الكردى أبدا · لقد وضع نفسه فى موقف قذر كى يثير دهشة هذا الجمع المسكين ·

(١٠)

وقف العملاق ذو الكتفين العريضين فى دكانه الخشبى · كأنه مومياء فى تابوتها · حانوت ضيق · يتسع نصف متر بعمق ثلاثين سنتيمترا ·مزحوم بالزجاجات المليئة بالعطور وعلب المراهم والقنينات المليئة بالسوائل ضد الضعف الجنسى والعقم · تفوح منها روائح كثيفة · تجعل الجو غير محتمل حتى آخر الحارة · وربما أبعد ·

وبحركة عنيفة · فك الرجل غطاء القنينة ، فاحت رائحتها للزبونة الواقفة على عتبة الدكان قال :

ـ نقطة واحدة من هذا العطر يميت الرجال من أجلك ·

ردت المرأة ضاحكة : لا أريد أن أقتل أحدا · ولكن ان اعجب زوجى ·

قال الرجل : اذن لن ابيعك اياها • رحمة به • لأنه سيغدو مجنونا •

ـ يا نهار أغبر ! لماذا تقول هذه الغباءات ؟ سوف اشتريها له •

ـ حسنا • بعشرة قروش لأجل خاطرك •

فتشت في ثنايا ملاءتها • اخرجت منديلها • وفكته وعدت النقود • فسلمها التاجر القنينة قال :

ـ لن يستطيع زوجك ان يقاومك • مستحيل أن يعيش بعيدا عن هذا العطر •

ـ اذا جاءك فلا تبع له منها •

ـ لاجل خاطرك • لن ابيعه منها •

ذهبت المرأة حاملة القنينة • واستدار الرجل ناحية يحيى وقال :

ـ حسنا • السعر يناسبنى • سوف آخذ البضاعة •

ـ سأحضرها لك في أقرب وقت • لا أعرف متى • يجب أن تسلمها قريبا •

ـ اتمنى ان تكون بضاعة جيدة :

قال يحيى : أحسن حال • انت تعرف • سلام عليكم •

وهو يترك حانوت العطور • اتجه يحيى ناحية قهوة المرايا • اصابه بعض القلق • فقد بدا الرجل متخوفا • ليس من السهل اغراؤه • فالأمر معروف بين تجار المخدرات • وقد جرب يحيى مرات عديدة ويجب أن يقر أن هذا احتيال • فالأمر يتعلق بكمية

من الهيروين • حين تأتي لحظة تسليم البضاعة فان اللفافة تحتوى على سلفات صودا مشتراة من صيدلية • يجب أن تتم الصفقة بأسرع ما يمكن • وسيمنع هذا المشترى من فحص البضاعة • الا أنه عندما يكتشف اللعبة يكون الوقت قد تأخر وليس امامه سوى ان يلعن اللص • دون أن يجرؤ على الشكوى لأحد •

لم يفعل يحيى هذا منذ امد طويل • ليس لأنه واع ولكن لأن شهرته السيئة قد جعلته مشبوها بين تجار المدينة • وأصبح من الصعب عليه أن يجد ضحية جديدة • اما هذا الرجل الذى عثر عليه أخيرا فهو تاجر لم يقابل مثيلا له وسيعقد معه أحسن الصفقات • المخاطرة كبيرة • لأن الرجل مرشد شرطة • يمكن ان ينصب له فخا • ولكن يحيى ترك نفسه تنساب فى هذه المخاطرة • فهو لا يعرف وسيلة أخرى لجلب النقود التى يمكن ان يسافر بها جوهر الى سوريا والهروب من مطاردة الشرطة •

فى مقهى المرايا • وجد جوهر جالسا امام الكردى • لا يتكلمان • بدا الكردى أكثر قتامة عن أى وقت آخر • جلس جوهر يلف لفافته بالحشيش وقد هبطت عليه السكينة • تاهت عيناه فى حشد الرواد الذين يملأون رصيف الشرفة • من وقت لآخر • يمسك الزجاجة الموضوعة أمامه ويحتسى من الشاى الساخن •• جلس يحيى معهما دون أن ينبس ببنت شفة ، فهو لا يرغب أن يتكلم • يفكر فيما فعله منذ قليل ، سوف يحصل قريبا على المال الذى يمكن جوهر من سفره • فانقاذ جوهر من هذه المحنة يعد بالنسبة له واجبا مقدسا • وطيلة هذه الأيام • لم يفكر سوى فى الطريقة التى يساعده بها • اصابته الدهشة حول تورط جوهر فى مثل هذه الجريمة • فهذا الغموض لا يزال يلبسه • كيف وصل جوهر الى هذا الحد ؟ وأى عبث دفعه أن

يقترف امرا لم يتعمده ؟ فجوهر هو اقل البشر ميلا لممارسة العنف كيف يتخيل ان يهاجم عاهرة لا حول لها ولا قوة · مخلوق بائس مثل الآخرين · اراد يحيى أن يسأل جوهر عن كل تفاصيل الحدث الهذياني الذي دار بينه وبين ضحيته ، ولكن نوعا من العفة . والكتمان يتملكانه · أي حاجة للمعرفة · يجب أن تبدو الصداقة الحقيقية في أحسن صورة · دون أن تكون هناك تفسيرات ·

انطلق صوت الراديو فجأة كأنه العاصفة · تعالت الموسيقى بصورة لا تحتمل · هزت الريح جوهر · بدا كأنه لاحظ وجود يحيى · فانطلقت ابتسامة باهتة من وجهه · قال :

ـ يبدو عليك التعب · ماذا حدث ؟ هل هناك متاعب ؟

رد يحيى : لا شيء · أنا متعب ليس الا · لم انم في سرير منذ أيام ·

ـ هل تركت فندقك ؟

ـ أجل سيدي · فهو خطر ، لقد عرفت الشرطة عنواني · وليست معي نقود · ولا يوجد فندق يود ان يقبلني بالأجل ·

ـ هل يمكن ان افعل شيئا ؟ حجرتي تحت امرك ·

ـ اشكرك يا سيدي ! سوف تكون معي نقود هذا المساء · وآنذاك سيكون لي سرير ملكي ·

ـ هل تعتقد انهم لن يجدوك ؟

ـ أنا في حاجة ان يتركونني في حالي أياما ، أؤدي فيها ما يهمني من أعمالي · سوف يرتب هذا الأمر · فكل ما يمكنهم هو مضايقتي · لكنهم لا يمتلكون شيئا ضدي ·

قال جوهر : لماذا لا تترك الأمر يأخذ مجراه · ماذا تخشى ·

ـ اخشى أن افتقدك يا سيدي · آسف لهذه الانانية · اعرف انك تسخر مما يمكن ان يحدث لك · فكر في انني لا احتمل فقدانك ·

ـ سوف تفتقدني اذا رحلت الى سوريا ·

ـ يكفيني ان اعرف انك على قيد الحياة · حتى لو كنت بعيدا ·

كيف يخبره أنه يخشى أقسى عقوبة بالنسبة له : الاعدام · تعيش روح جوهر في عصور اخرى · تبقى ذاكرته قوية كالحجر الصوان ولكن هل هذه هي السعادة ؟ اية ذكرى يمكن أن تسيل الكلام الحلو ؟ هل تحتوى الكنوز البشرية على مشاعر حنونة ؟ لا · فيحيى في حاجة الى جوهر حيا حتى وان ابعدته المسافات · فجوهر يكفيه ان يكون حيا · فوجوده في أى مكان سبب لسعادته ·

هز الكردى رأسه وبدا كأنه غرق في خيالات واسعة · نظر الى رفيقيه كأنه يلمحهما فقط · وقد برقت عيناه · سأل بحدة :

ـ عم تتكلمان · هل سترحل فعلا الى سوريا يا سيدي ؟ · اذن ستتركنا وحدنا استحلفك أن تأخذني معك · أود أن ارحل معك · لنرحل حالا · فلدى عربتي · والجياد مستعدة · ماذا تنتظر يا سيدي ؟

قال يحيى : ماذا هناك · بشرفي انت تهرق ·

قال جوهر : أعتقدأنه على غير وفاق مع عشيقته · لقد حدث هذا توا · لا تقلق ·

قال يحيى : سوف اهدئه · عزيزى الكردى · اسمعنى · لقد رأيت وأنا قادم جامعة أعقاب سجائر بدت حسناء · أعتقد انها ليست بعيدة ·

نظر جوهر الى الكردى وبدأ فى محادثته بصوت خفيض · وفجأة ارتسمت الدهشة على وجهه · فقد رأى شخصا يعرفه فى الحشد الغفير · قال :

– انتبهوا · ها هو الضابط المكلف بالجريمة · قادم نحونا كونوا حذرين · ولا تقولوا شيئا ·

قال الكردى : سأقول ما يعجبنى · فانا لا أخشى أحدا ·

بدا جوهر كأنه لا يفهم شيئا · أمسك الكوب بهدوء واحتسى بعض الشاى · استند الكردى على المقعد وقد شعر بالكبرياء · وكأنه يستعد لمعركة فاصلة ·

اقترب نور الدين من مائدتهما · بدا أنه لم يرهما · قال يحيى مبتسما بسخرية : سلام يا حضرة الضابط · الا تشرفنا قليلا ·

دعك نور الدين عينيه · وقد بدا جامد القسمات · بالتأكيد هو فى حاجة الى هذا اللقاء · فهو ليس وحده · يصحبه سمير · بدا مترددا لحظة · ثم ابتسم بفتور وقال :

– مفاجأة سعيدة · سأكون ممتنا أن أتعرف على أصدقائك · لكن يبدو انني تشرفت بالتعرف على هذا الشاب · أظننا تقابلنا من قبل ·

رد الكردى وقد بدا عليه التعالى : فعلا · وأنا سعيد انك تذكرنى يا حضرة الضابط ·

– كيف يمكن أن أنساك · لا أنسى أبدا رجلا ذكيا مثلك فحديثنا فى ذلك اليوم قد ترك انطباعا طيبا عنك · فكرت كثيرا فى هذا اللقاء · دعنى اقدم لك صديقى · طالب فى كلية الحقوق · له مستقبل مرموق ·

هز سمير رأسه · لكنه لم يمد يده للمصافحة · يبدو كأنه يجاهد لكبت أعصابه · انه خجول · لا يشك ان كل هؤلاء الناس ليسوا على شاكلة نور الدين · حاول أن يذهب وهو يبدى ازدراءه للموقف ·

قال يحيى : وهذا جوهر أفندى · كيف لم تتعرف على جوهر أفندى · هذه فجوة كبيرة فى حياتك ·

قال نور الدين محييا جوهر : أنا سعيد بسد هذه الفجوة ·

سأل يحيى : ألا تجلس ؟

يبدو سعيدا لهذا اللقاء بدأ يلف حول المائدة مقدما المقاعد ·

جلس نور الدين · تردد سمير لحظة · ثم جلس بدوره وهو يرمق الضابط بازدراء · كم سيكون سعيدا وهو يقتله ·

سأل نور الدين : هل تتناول شيئا ؟

ودون أن ينتظر الرد نادى النادل وطلب شايا لكل الجالسين محاولا أن يبدى كرمه · قال يحيى :

– هذا شرف كبير فعلا يا سعادة البك · انت تخجلنا بكرمك ·

قال نور الدين : عفوا · لم أفعل سوى الواجب ·

ثم غير لهجته فجأة وقال :

ـ علمت انك غيرت الفندق . هل هذا صحيح ؟

رد يحيى : فعلا . وجدت هذا أفضل . فسعادتك تعرف ان الفندق خال من دورات الميـاه . ومن الصعب أن أقيـم فيه فترة طويلة . ولعلك تقدر ذلك .

ـ هل يمكننى أن أعرف أين تقيم الآن ؟

ـ طبعا . فليس لدى ما أخفيه . أقيم الآن فى « سميراميس » فندق درجة أولى . مكان رائع . يقال ان الحياة تبدأ حين تدخله . آسف ـ فكما تعرف سـعادتك ـ فأنا مصنوع للأماكن الفخمة .

قال نور الدين مبتسما : أعتقد أنك مجنون دائما . لا يهم سوف أسمعك فيما بعد .

ـ هذا يسعدنى يا سعادة البك .

كان يحيى هو الشخص الوحيد ـ بين الجالسين ـ الذى قدركم أن الموقف حساسا . وأن الضابط والقاتل يجلسان على نفس المائدة . يدعوه الى شاى . ويتصرف بتلقـائية . وهـذا أمر طبيعى . تناسى وجود جوهر الذى لم يكف عن الدعـابة والمزاح ـ لم يستطع أن يقاوم رغبته فى استفزاز نور الدين .

ـ سيدى الضابط . هل القضية فى تطور ؟

رد نور الدين : لست آسـفا . فنهايتها وشـيكة . لا تنسى ان الصبر هو الفضيلة المطلوبة فى مهنتنا . على فكرة . هل فكرت فيما سألتك عنه فى ذلك اليوم ؟ فهناك أمور تتعلق بك . وأعتقد اننى اقترفت ذنبا ضدك .

قال يحيى : فكرت . أحب ان أساعدك . صدقنى . وهذه القضية موضع اهتمامى .

ـ خسارة . لكن ليس هذا مكانا للكلام فى هذه الأمـور سوف أتحدث معك مرة أخرى . فلدينا الكثير لنقوله . سوف أخرج هذا المساء للنزهة مع صديقى . علينا أن نزيل الملل من وقت لآخر . اليس كذلك ؟ نحن هنا أصدقاء . لنتمتع . أما العمل ففيما بعد .

قال الكردى وهو يخرج من كآبته : انتبه سيدى الضابط .

قال نور الدين : بالطبع . أتساءل فيما قلته . ألم تقل كل شيء . لقد سمعت قصة غريبة يبدو انك تريد أن تورط نفسك فى حكاية قتل أرنبة . أليس كذلك ؟

قال الكردى : أنا لم أخدعك . ولا أنكر شيئا . ماذا تنتظر لتقبض على ؟

قال يحيى : أنا لا أعرف شيئا عن هذه القصة يا عزيزى الكردى . أهنئك .

رد نور الدين . لن أقبض عليك . لأننى أعرف أنك لست القـاتل . لماذا تود أن نقبض عليك ؟ أدهش من شاب مثلك مثقف . ويتكلم بلغةأجنبية . ويتصرف بهذه الطريقة . لا أستطيع أن أفهم دافعك . هل يمكن أن تفسر سبب ذلك . جوهر أفندى أعتقد انك كنت موجودا أثناء هذا المشهد ؟

ران صمت . تركزت كل الأنظار على جوهر . وخاصـة سمير الذى تطلع اليه بتركيز . وهو يشعر انه سيسمع شـيئا هاما .

لم يتكلم جوهر . دامت لحظة لم يشعر فيها سوى بكرة المخدرات فى فمه ، كادت أن تنتهى . ابتلع بقاياها وهو يحاول أن يتلذذ بآخر نقطة من مذاقها . وتتلون الاشياء من حوله بألوان جميلة . وهو لا يستطيع ان يحدد ايه تفاصيل امامه . تتحول الضحكات والأصوات الى همس بالغ السرية . وكأنها تنهدات امرأة فى لحظة الذروة . تركزت عيناه على نور الدين . بوغت بهذا الاحساس الفريد الذى يشعره المرء امام جلاده . اكتشف ان هذا الجلاد ذا المظهر العنيف مرتبك وقلق ويشعر بالخطر حوله يا لها من نظرة ألم . أى عذاب معنوى يتمثل فى وجهه الصارم . تبهته غريزته ان لا شىء يخشاه من هذا الرجل . بل ان هذا الرجل فى أمس الحاجة الى مساعدته والى الشفقة عليه .

قال يحيى : سيدى الضابط . انتظر . لنسمع رأيك .

علق جوهر : حسنا . أعتقد اننى يمكن أن أفسر سلوك صديقى الشاب . الكردى رجل نبيل الروح . يكره الظلم ويهتم بمحاربته . ويريد اصلاح العالم . ولكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك . وأعتقد أن هذه الجريمة قد أثارته . يود أن يحمل نفسه المسئولية وأن يكون شهيدها . أنا سعيد يا حضرة الضابط لأنك لم تأخذ تصريحاته مأخذ الجد . ويجب أن تغفر له هذا السلوك فقد تصرف بنخوة الشرف .

صاح الكردى : سيدى . هذا فوق الاحتمال . دعنى أشرح لك . أعرف اننى لست القاتل . ولكن سواء كان أنا أم غيرى . فماذا يهم ؟ المهم بالنسبة لك يا حضرة الضابط أن تقبض على أحد . أليس كذلك ؟ حسنا . أقدم نفسى . ويجب أن تقر هذا .

قال نور الدين : عبثا . عبثا . ليس هذا هو المهم . أريد أن أقبض على القاتل ولا أحد غيره .

سأل يحيى : لماذا . لماذا تقبض فقط على القاتل ؟ انت تخيب ظنى . تترك نفسه فريسة لاعتبارات واهية .

كرر نور الدين : لماذا ؟ لماذا أقبض على انسان برىء ؟

قال جوهر : من الصعب الخيار بين المذنب والبرىء .

قال نور الدين : ولكننى لا اختار . ولكن اتخذ موقفا بعد اجراءات عديدة . لن أقبض على رجل الا عندما أقتنع بما اقترفه . كلكم مثقفون ويبدو عليكم انه ليس لديكم فكرة عن القانون .

قال يحيى : ليس القانون ما يهمنا . ولكن الانسان . ما يهمنى أن أعرف . لماذا يقضى رجل مثلك يضيع وقته فى مثل هذه الأشياء . بدلا من أن يتمتع بحياته القصيرة . أجد أن هذا الانشغال مثير للشفقة .

قال نور الدين : أنا لا أدافع سوى عن المجتمع ضد الجريمة أى نوع من الناس أنتم . تعيشون بعيدا عن الواقع .

قال جوهر : الواقع الذى تتكلم عنه واقع مزعوم . حلم اخترعه البشر .

قال نور الدين : ليس هناك واقعان .

هتف جوهر : أجل هناك الواقع المبنى على الغش . وفيه تحس انك مثل سمكة معلقة فى سنارة .

– وما هو الآخر ؟

– الآخر واقع متفائل يعكس بساطة الحياة . لأن الحياة سهلة . سيدى الضابط . ماذا يلزم الانسان كى يعيش ؟ قليل من الخبز يكفى .

قال يحيى : وأيضا قليل من الحشيش ·

ـ ليكن · وقليل من الحشيش ·

هتف نور الدين · ولكن هذا ضد التقدم ·

قال جوهر : يجب أن نختار · التقدم أم السلام · لقد اخترنا السلام ·

قال يحيى : اذن فلنترك التقدم يا سعادة البك · أنت تخرج · ونتمنى لك وقتا سعيدا ·

فتح نور الدين فمه ليتكلم · ولكن لم تخرج من حنجرته المحشرجة أية كلمة · انه مشدوه بشخصية جوهر · يتكلم هذا الرجل عن السلام كأنه شيء سهل يمكن اختياره · السلام ! يجهل نور الدين كل دخائل جوهر · ولكن هذا الرجل ليس ما يبدو منه فقط · فهو ليس مفكرا فاشلا أحاق به الفقر · يشع من وجهه الملئ بالحيوية · ولغته الجذابة ونبل سلوكه ذكاء حاد · كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يهوى فى أسفل درجات السلم الاجتماعى ؟ هل اكتشف فجأة السلام فى هذا العدم المتناهى ·

حسب تقارير الشرطة · فان نور الدين يعرف أن جوهر كان يشغل وظيفة فى ماخور الست أمينة · ولم يعلق لهذا أية أهمية مؤمنا أن الأمر يتعلق بخادم عجوز أحسنت اليه بأن منحته عدة وظائف · لم يتخيل هذا · يراه الآن أمامه · لقد غير فكرته فى هذا الموضوع · وتساءل عما اذا كان هو القاتل · سأل جوهر وهو يحدق فيه باستغراب :

ـ ما هو السلام ؟

رد جوهر : هو الشيء الذى نبحث عنه ·

ـ يا الهى · من ادراك اننى أبحث · أنا أبحث عن قاتل ·

قال يحيى : انت تثير دهشتى يا سعادة البك · لماذا لم تأخذ باعتراف الكردى · أتمنى أن أعرف مبرراتك ·

قال نور الدين : المبررات بالغة التفاهة · لأننى عقدت لقاء مع هذا الشاب · ولا يمكن أن يكون الكردى أفندى قاتلا · فهو يثرثر كثيرا · واقع دائما تحت سطوة افكاره · وينقصه التملق رجل مثالى · أما الرجل الذى ارتكب الجريمة فله صفات أخرى تختلف · كتوم · ملئ بالغموض ·

هتف يحيى : يا الهى · أنت تتكلم عن علم النفس · لم أكن أعتقد هذا فيك · سيدى الضابط · انت لا تكف عن اثارة دهشتى ·

ـ أعترف انها أول مهمة أتولاها من هذا النوع · غياب الدافع الملموس · مما يضطرنى أن أقول انها جريمة بلا دافع ·

قال يحيى : الجريمة بلا دافع تتطلب فكرا راقيا · معذرة كنت أتصورك ذا روح شرسة دنيئة ·

قال جوهر : انت على خطأ يا عزيزى يحيى حين تتصور أن حضرة الضابط ذو روح شرسة · فقد حلل الدافع جيدا · لكن لى رأيا ·

سأل نور الدين : ماذا ؟

ـ هل تقع الجريمة بلا دافع تحت طائلة القانون ؟ أليس لها نفس مدلول الزلزال مثلا ·

.. الزلزال ؟!

قال نور الدين : الزلزال لا سبب له · انه قدر مشئوم ·

رد جوهر : لكن الانسان أكثر شـؤما لاقرانه · أصبح أشد من الزلزال · على كل حال · هنـاك الكثـير من الدوافع · ألا تصدق سيدى الضابط · لقد أظهر الانسان من شروره أكثر ما تمتلك الطبيعة ؟

قال نور الدين مداعبا : لا أستطيع أن أقبض على الزلزال·

قال يحيى : والقنبلة · هل يمكن سعادتك أن تقبض على القنبلة ؟

قال نور الدين ساخرا : ولا هذه المجنونة · يا يحيى أفندى لا أستطيع أن أقبض على القنبلة ·

قال يحيى : اذن ، فانهم يدفعون لك حتى لا تفعل شيئا · ما يهمنى · هو انك تقبض على قاتل مسكين · وانت غير قـادر على القبض على قنبلة ·

ابتعد سمير عن دائرة الحوار · ولم يقف أثناء هذا موقفه البارد المليء بالاشمئزاز · يبدو نافرا من كل هذا الجمع · فهم جميعا غرباء بالنسبة له · لم يقابل مثلهم أبدا · أحس ان هؤلاء الناس يتكلمون عن غباءات · وانهم يتعمدون استفزاز نور الدين ويتسلون به · نظر سمير الى الكردى · دون أن يعرف لماذا · فهم ان هذا يعرف · يعامل نور الدين بكراهيـة · هل لأن ضابط الشرطة أفضل منه ؟ آدار سمير راسه · وقد أحس بالغضـب يتملكه ·

قام · سأله نور الدين ·

– الى أين ؟

– معذرة يا سـعادة البك ! على أن أعـود للبيت · فأبى لا يسمح لى بالسهر حتى وقت متأخر ·

قال نور الدين : تحياتى للأسرة ·

قال سمير بلهجة لطيفة لكنها لاذعة :

– لن يفوتنى هذا ·

آدار ظهـره وعبر الشرفة وهو يرفع رأسه عاليا · قال نور الدين :

– أرجو أن تعذروا صديقى · فهو شخص خجول ·

قال يحيى : انه رائع · رائع حقا · لقد حان الوقت أيضـا كى أذهب · آسف أن يفوتنى حديث مفيد كهذا · الحقيقة أننى أكاد أن أموت نوما ·

قال جوهر وهو يقوم : سعيد أن أتعرف عليك يا حضرة الضابط · الى لقاء آخر ·

سأل نور الدين : هل يمكن ان اصحبك لحظة ؟

رد جوهر : بالطبع · فأنا فى خدمتك ·

اختفى يحيى · وظل الكردى وحده وهو لا يعير رحيل الآخرين اهتماما ·

كتم يحيى صرخة وهو يقف · فقد تملكه شـك رهيب · وايقظه من فتور · أحس فجأة أن جسده يحترق بكامله · ولكنـه ليس باردا · فالبرد لا يمكن ان يصل الى المنطقة التى تقبع فيها عذاباته · انتظر لحظة · ثم غمس يده فى جيبه واخرج قطعـة

من النقود أخذ يقلبها بين اصابعه · يتفحصها طويلا متعجبا على ديمومة الأشـياء · لكن هذا الأمر لم يبد له كافيا · فالاحاسيس المشئومة التى انتابته قد منعته من التنفس · عليه أن يتأكد ان القطعة غير مزيفـة · كيف يتأكد فى الظلام · عليه أن يقترب من النور ·

هناك فانوس فى أول الشارع · اتجه ناحية الضوء · وقـد انتابته الشكوك · فلتكن النقود مزيفة · ولينم الليل · لكنـه يتمنى ان ينام · فى غرفة فندق · بعيدا عن البرد وتعب المشى بلا هدف · انه يعتمد على هذه القطعة التى لا يملك غيرها ·

يغلبه النوم · حلم بالنوم فى مكـان مريح · يشعر بلـذة الابدية · لا يزال المصباح على مسافة امتار · لا يمكن له ان يتماسك طويلا ، توقف لينظر الى قطعة النقود · فتح يده المرتجفة وامسكها بارتفاع عينيه واطلق صرخة مفاجئة · وقد سقطت قطعة النقود فوق الأرض · ولم يشعر بها تنزلق من يده المرتجفة · ارتمى يحيى أرضـا وهو يتحسس بيـده · لم ير شـيئا · ولم يتحسس شـيئا · أحس بالدوار وبدأت رأسـه تتوه · لايزال المصباح بعيدا · الضوء الذى يشعر يسقط فى البؤرة التى يبحث فيها · أحس بالغضب يتملكه · لعن نفسه لأنه أخرج النقود من جيبه · ثم أخذ يلعن الحكومة لانها صكت النقود فئة القرشـين صغيرة · الا يمكن للحكومة أن تصك قطعـة أكبر · « حكومة الداعرين » · فبماذا كانت تفكر وهى تصنع هذه القطع فى التوفير · هذا شيء مثير للخجل والعبث ·

تخيل يحيى وسط غضبه أنه يحول المصباح الى مكان النقود وأنه قادر على كل شيء من أجل العثور على نقوده · فكر فى الثقاب وقفز فرحا · لقد انتهت كل معاناته أثر هذه الحكاية · فعلبـة

الثقاب موجودة فى جيب بنطاله · اخرجها واشعل عودا · انحنى وأخذ يدور بالثقاب حول نفسه · لم يعثر على شيء · فالنقود لاتزال ضائعة · أشعل عودا آخر وسار يضع خطوات حتى كادت أنفه أن تلمس الأرض · فجأة أحس بقلبه يطير من الفرح · فقد رأى النقود أمامه تلمع كأنها قطعة من الماس · التقطها ودسها فى جيبه بسرعة · ثم ظـل سـاكتا لا يقوى على الحراك · أحس فجـأة بالثقاب الذى نساه يحرق أصبعيه · صرخ : « حكومة الداعرين » ·

سمع صوت خطوات قريبة · ثم توقف شخص خلفه · كتم يحيى أنفاسه · واستدار ووجد نفسه أمام شرطى · ياله من ظهور سيء · لا يتحرك من التعب والبرد والجوع · وأمامه الان الممثـل الرسمى لكل هذه الاشياء · ابتسم بغباء · قال الشرطى :

– اذن · فانت تسب الحكومة ·

تمتم يحيى · أنا لم أسب أحدا يا حضرة ·

– سمعتك تقول « حكومة الداعرين » · لست أصما · هيا · قل ·

قال يحيى : أبدا يا حضرة · لقد أحرق الثقاب أصبعى ·

قال الشرطى : سنرى الثقاب فيما بعد · اما الآن · فقـل لى · هل حكومتنا حكومة داعرة · نعم ام لا ؟ ·

– أبدا يا حضرة ، بشرفى · لا أقصد حكومتنا ·

– أية حكومة تقصد ؟

قال يحيى : أقصد حكومة أجنبية ·

قال الشرطى شاردا : حكومة أجنبية · أنت كاذب : بل تعنى حكومتنا · وأنا متأكد من ذلك ·

ـ بشرفى . هناك سوء تفاهم . ولكن الامر يخص حكومة أجنبية . ويمكن ان اقول لك أى بلد .

سكت الشرطى . بدا كانه يفكر . وانه يرى الامور تسير سيئة .

ـ قل لى اسم البلد بسرعة .

لم يفكر يحيى فى اختيار البلد . فالعالم واسع . والبلاد تتلاطم فى وجهه . وعليه ان يختار . خرج من بين شفتيه وقال :

ـ سوريا .

كرر الشرطى : سوريا . انها بعيدة . هل أنت واثق مما تقول ؟

ـ بالطبع . واقسم لك بشرفى .

قال الشرطى : حسنا . ولكنى لن أتركك . ماذا تفعل هنا وأنت تشعل الثقاب ؟ هل تعرف اننى كنت ارقبك منذ فترة ؟

قال يحيى : سأشرح لك . سقطت منى قطعة نقود وبحثت عنها فأشعلت . كما ترى فالأمر سهل .

ـ قطعة نقود . ماذا تقصد ؟

بدا الأمر معقدا . ارتعد يحيى من البرد . ماذا يدور من حوله كل حياته مطاردات . والان . وفى أول الليل . يجد نفسه امام متاعب جديدة . انه يكره الشرطة وخاصة حراس الليل . ذوى الوجوه القبيحة ورغم ذلك ففى هذه اللحظة تمنى أن يكون بعيدا عن هذا الشرطى الضيق الافق الغبى . كفاه ما رأى . ولديه ما يكفيه من الجنون . ليس أمامه سوى الليل . عليه أن ينام بعيدا

عن البرد . وان يتخلص من هذا التعب الذى يجره وراءه . أجل . أن ينام .

تكلم بصوت خفيض . وقد اكسب كلامه أدبا .

ـ صدقنى يا حضرة . لقد اخبرتك بالحقيقة . وها هى قطعة النقود .

وأخرجها يحيى من جيبه وأراها للشرطى .

ـ لقد وجدتها عندما وصلت .

نظر الشرطى الى النقود وتثاءب . لا يود أن يذهب به الى قسم الشرطة . ثم ان الشخص يبدو له اقل أهمية . قال :

ـ حسنا . يمكنك أن تذهب . وكفاك أن تتصرف كالمشبوهين فانا اراقبك .

قال يحيى : شكرا يا حضرة . أنت رجل طيب . ولماح . وستصبح وزيرا يوما .

تنهد يحيى بعمق . ثم أسرع . وصل أسفل المصباح . فتوقف وفتح يديه وتفحص قطعة النقود تبدو عادية . قطعة أصيلة . لا يجرؤ ان يرفضها أحد . استكمل طريقه وهو يشعر ان الشرطى يتبعه فى الظلام .

توقف أمام أول فندق عليه لوحة « فندق الشمس » دخل . ينام الموظف فوق اريكة قذرة . رفع رأسه ونظر الى يحيى كأنه يعامله كلص .

ـ ماذا تريد ؟

رد يحيى : غرفة .

قال الرجل : غرفة · أجل · يمكننى أن أعطيــك غرفة · قرشان · هل معك نقود ؟

استعد يحيى لطلبه · أمسك النقود فى يده ومدها للرجل الذى أمسكها ونظر اليها فى ضوء مصباح الغاز الذى يضىء الممر ، قال بنبرة مغايرة :

ـ اتبعنى يا بك ·

صعدا سلم بلا درابزين بليت درجـاته · وأحس أنه فخ · توقف الرجل فى الدور الثانى · امام باب دفعه وهو يقول :

ـ أنها أجمل غرفة فى الفندق · أنا لا أقدمها سوى لكبـار الزبائن ·

قال يحيى : شكرا ·

كانت الغرفة مفروشة · بسرير حديدى عليه غطاء وردى · ومقعد ومائدة صغيرة مصنوعة من الخشب الأسود · ولكن يحيى لم ينظر الى الغطاء ·

ـ قل لى · الا يوجد عندكم بق ؟

رد الرجل مبغوتا : بق · أبدا · نحن فندق درجة أولى ·

ـ شكرا ·

قال الرجل · اتركك لتنام جيدا ·

خلع يحيى ملابســه فى الظلام وتمدد فوق السرير · نـام بسرعة · وغرق فى احلامه · حلم أنه شرطى بالغ القوة ويحمل الكثير من الاسلحة · ولا يخشى أحدا · وانه سيد الشارع الذى لا يهاب · يبذر الرعب فى طريقه · ويهرب كل الغلابة عندما يقترب

ثم رأى نفسه قزما قصيرا مليئا بالقبح والدمامة · أحس بمطرقـة تهوى عليه وألم ينخر فى جسده ·

استيقظ يحيى وأطلق صرخة حادة · عم الغرفة برد قارس · حاول أن يجذب الغطاء ولكنه بوغت أن الغطاء غير موجود · قطعت الدهشة أنفاسه · لم يفهم · أين الغطاء · نادى على موظف الفندق بأعلى صوته ·

مر وقت طويل قبل ان يسمع ردا · جلس على السرير وقد عقد يديه على صــدره ليحمى نفسه من البرد · نادى من جديد · فتح الباب · دخل الرجل ممسكا بيده مصباح الغاز · تقدم بحذر وهو يضع أصبعه على فمه · صاح يحيى ·

ـ اين الغطاء · ما الحكاية ؟

همس الرجل · لا شىء · اعطيته لزبون · وما ان يغط فى النوم حتى احضره لك · بشرفى · اقسم لك · فلا تثر فضيحة ·

تأكد يحيى مما حدث أثنـاء نومه · فقد جاء الرجل وجذب الغطاء كى يعطيه لزبون آخر · اندهش من هذا الاسلوب الغريب · سأله :

ـ أليس لديكم سوى غطاء واحد فى الفندق ؟

رد الرجل بصوت خفيض : ابدا · نحن فندق درجة أولى · ولدينا ثلاثة أغطية · وعندنا زبائن كثيرون ·

قال يحيى : فهمت · ماذا سنفعل · أنا بردان وأريد أن أنام · فهات الغطاء ·

قال الرجل : بضع لحظات · بشرفى سوف احضره لك توا ·

والزبون الذى اعطيته له بالغ التعب . كان ينام واقفا . ولعله نام الآن . لاتتحرك . سوف أرى . فلا تصرخ .

خرج الرجل على أطراف أصابعه حاملا المصباح . جلس يحيى فى الظلام يرتعد من البرد . سمع الرجل يفتح باب غرفة مجاورة لغرفته . ربما انها غرفة الزبون الجديد . تمتم يحيى : « يا رب . لتجعله ينام » ثم انفجر ضاحكا ضحكة جلجلت فى الفندق بأكمله كأنما اصابه جنون .

(١١)

قدم الشرطى الذى اصطحب كل أفراد العصابة تفسيراته بصورة مشوشة فلم يستمع السيد نور الدين . فهو لا يعبأ بشخصه ولا يعيره اهتماما . فموضوع المشاجرة التى دارت فى المقهى قد تعقدت شيئا فشيئا . من بدأ المشاجرة ؟ لا أحد يعرف . جلس نور الدين خلف مكتبه يرقب المشهد بعين مليئة بالاشمئزاز . يتنهد أحيانا كرجل أصابه التعب والملل . يقفون أمامه صفا . ثلاثة رجال أقوياء لكل منهم يدان غليظتان . لعلهم حوذيون . وشخص رابع رقيق يدمي وجهه ويرتدى ملابس رثة . انه شحاذ ، يمسك برأسه وهو ينظر الى الضابط بكبرياء .

طرح نور الدين أخيرا سؤالا :

ـ هل تعرف هؤلاء الرجال الذين ضربوك ؟

تحرك الرجل الدامى الوجه وتقدم خطوة ناحية الضابط . وكأن هذا قد سبه بأمه . وصاح :

– يضربني . من يجرؤ ان يضربني ؟

– اذن مم تشكو يا ابن الكلب ؟

– أنا لم أشك ياسعادة البك . من قال انني أشكو ؟

وقف الحوذيون الثلاثة صامتين . يستغربون من سلوك ضحيتهم الغريب . قام نور الدين وقد انتابته الرغبة أن يضرب كل من حوله . ولكنه أحس فجأة بكبريائه فتراجع . فهو من الخارج ضابط شرطة . قاس . يرفل فى زيه الرسمى . ولكن فى أعماقه يتساوى كل شىء . لم يفهم هذا المرض الذى يتملكه ويجعله يكره السلطة . يبدو له أن السلطة التى يستمد منها قوته غير موجودة . يندهش من حضوره . وضع يده على وجنته واستند على المكتب وقد بدا عليه الاعياء .

مال الشرطى عليه وسأله بصوت خفيض :

– هل أنت مريض يابك ؟

رد نور الدين : ادخل هذه الشرذمة الى الزنزانة . لا أريد أن أراهم .

عندما خرج الشرطى والرجال الأربعة من الغرفة نظر نور الدين الى المخبر الذى جلس على المقعد لتوه . انه هو الذى كلفه بمراقبة الماخور :

– ما أخبارك ؟

– فى الواقع ، ليس لدى جديد يا سعادة البك . اعتقد ان مهمتى لاجدوى منها . فكل الناس هناك يعرفون من أنا .

– هذا لايدهشنى . فليس فيك شىء مميز .

– لقد حصلت لسعادتك على نتائج . اعتراف هذا الشاب .

قاطعه نور الدين : أعرف . أنه يسخر منك .

– لا أفهم .

– لاتحاول أن تفهم . فانت غلبان . قل لى . ألم تلاحظ شخصا يدعى جوهر أفندى .

– أجل . رجل عاقل وله اسلوب مهذب . ولا يبدو مشبوها .

– حسنا . هذا سبب كاف بالنسبة لى . يمكنك أن تذهب الآن .

بقى وحده . أمسك رأسه بين يديه وتنهد بعمق . أعصابه فى قمتها . لم تتركه هذه العصابة القذرة فى حاله . أراد نور الدين أن يقتلهم جميعا حتى يخرسهم . منذ وقت طويل يؤدى واجبه خير قيام . لكن ماذا يسمى هذا الضعف الغريب . هذا الملل الروحى الذى يحسه أثناء الاستجواب . انه يقتل فيه كل رغبة ويجعله غبيا .

الغريب . هو ذلك الكبرياء الذى اكتشفه فيما حوله بين الناس الأكثر فقرا . الذين يملكون القليل . هذا الشحاذ ذو الوجه الدامى نموذج غريب . لم يود أن يعترف ان أحدا ضربه . وشعر أن شيئا قد مس كرامته . وجد نور الدين نفسه أمام نظام لايخرق . نظام يهرب من كل تحقيقات الشرطة . ما الذى جعله يمتهن هذه المهنة ؟ هل لايزال يؤمن بها ؟ انه يقضى حياته يغرد أمامه هذه الحكايات الملعونة . يعانى من كبرياء الحفاة . أى حظ ؟ وبينما يختال من الكبرياء . لم يستطع أن ينسى الحقد الذى قرأه فى عيون سمير . تنهد وهو يفكر فى هذا الأمر .

عليه أن ينسى . ويهزم آلامه . فليس هذا سهلا . ففى كل لحظة يبدو متكابرا لهذا المتشرد المسكين . سوف يوقظ هذا جراحه . لماذا يا الهى . أية فرحة تأملها ؟ أحس أن عليه أن يتخلص من مسئوليته فى هذه المعركة التى لاتنتهى ولا جدوى منها . ولن يحصد سوى المرارة والحسرة . ليموت القتلة والسفاحون . وليتخلص منهم .

كان الليل قد حل عندما قام وخرج الى الشارع . أضاءت المصابيح الميدان الملىء بالمحلات والمقاهى المزدحمة . أسرع نور الدين بعبور الطريق دون ان يعير وسائل النقل اهتماما . يسمع أصوات الترام والسيارات ولكن يبدو له أن الأشياء تبتعد عنه . تقدم زائغ العينين . وقد فك أزرار سترته متجها نحو مصير قوى غاشم . فعندما قابل جوهر ـ ابان الحديث الذى دار بينهما ـ رافقه حتى بابه . حدث تغيير فى مفاهيم نور الدين تتعلق بمهنته . بدأ نور الدين فى التردد . يشك أبدا فى السلطة المقدسة التى يمثلها . بدأ فى التساؤل أين الحقيقة . فهو ليس متأكدا من شىء . فرغم اقتناعه ان جوهر هو القاتل الذى يبحث عنه الا أن ليس لديه دليل ملموس . لقد اهتم بشخصية جوهر . أكثر من اهتمامه بالقبض عليه كمجرم . حسب أن جوهر قد طرح مشكلة سيكون حلها جوهريا بالنسبة لمستقبله . وأثناء هذا بدأ فى تجميع كل الأدلة ضد جوهر . أحس انه يمس أمرا حساسا . ولن يترك خلفه سوى ركام . ولكنه يشعر ان هذا الركام سوف يسبب له سلاما . هذا السلام الذى أحسه أثناء لقائه بجوهر يفتقده الآن .

تاه نور الدين بين الحوارى التى تضيئها فتائل المصابيح البعيدة . لايتذكر جيدا أين يقع البيت . فكل البيوت متشابهة . قام بعدة دورات يتفحص واجهات البيوت وهو يحاول أن يتذكر

امام أى باب ترك جوهر فى ذلك المساء . لم يستطع ان يحدد المكان بالضبط . راح وجاء حتى شعر بخيبة أمل . عندما ساقته الصدفة أن يراه يدخل أحد الأبواب . قال جوهر :

ـ يا للمفاجأة السعيدة . هل جئت لتزورنى . أهلا وسهلا .

ـ كنت أمر فى الحى . وفكرت فى زيارتك . أتمنى الا أزعجك .

ـ أبدا . هذا شرف لى . فرصة سعيدة . فى الواقع لست معتادا على العودة الى المنزل مبكرا . ولكننى أردت أن أضع هذه الباقة فى حجرتى .

حمل جوهر تحت أبطه باقة كبيرة من الصحف القديمة التى ينام عليها . طبقها تحت أبطه وبدا لاهثا . تأمل الضابط بعين مرتابة . فان لقاءه به مبعثا لسعادة غريبة . أحس ان هذا اللقاء متعمد وان نور الدين جاء لاستجوابه . هل يشتبه فيه ؟ على كل . فهو ينتظر هذه الزيارة . بل يأملها قال :

ـ معذرة أن اسير أمامك . ولكن يجب أن أشير لك على الطريق . والاخاطرت بقتلك . فهذا بالغ الخطورة . وكل درجة فيه فخ مميت .

تبع أحدهما الآخر . داسا فوق السلم . لم ير نور الدين جوهر . سمع أنفاس تلهث بصوت أجش . أحس أنه أصبح أعمى .

أخيرا رأى ضوءا . وقف جوهر على السلمة الكبيرة . كان باب غرفة جيرانه مفتوحا . ينبعث منها ضوء خافت من لمبة غاز وتبدو الغرفة خاوية . توقف جوهر عن الحركة لحظة . فهذا الباب المفتوح

يخيفه . لا يريد أن يقابل جارته . هذه المرأة المخيفة . ولكن فجأة سمع صوت أشبه بصوت طفل يشده من تردده :

ـ أيها الناس الطيبون ساعدوني .

تقدم جوهر حتى عتبة الباب دخل غرفة جيرانه . باحثا عن مصدر الصوت . رأى في ركن من الغرفة القعيد ملقى على الأرض . كأنه تمثال يثير الذعر . غرق في دموعه . يحملق في طبق مليء بالفول وبعض اللقيمات أمامه : عشاءه . عندما اقترب جوهر . رفع رأسه وقد اكتسى وجهه بالارتياح . سأله جوهر :

ـ ماذا أستطيع بالنسبة لك :

رد القعيد : أنا جوعان . ذهبت المرأة وتركتني وحدي . الا يمكن أن تساعدني في تناول الطعام !

رد جوهر : طبعا .

انحنى ليضع باقة الجرائد أرضا . وترك نور الدين يقف على الباب . صرخ في القعيد حين رآه :

ـ الشرطة . ماذا تفعل الشرطة هنا ؟

قال جوهر : انه صديق . لاتقلق . فهو لايريد بأحد شرا .

ـ لا أحب الشرطة . فليذهب

نسى القعيد جوعه تحت وطأة الخوف ولم يفكر سوى في هذه الكارثة المفاجئة المتمثلة في حضور الضابط . تلوى على عجيزته مستندا على أسماله . وأطلق زمجرة كحيوان سقط في فخ ويريد أن يهرب من القبض عليه . فشلت المحاولات اليائسة التى بذلها نور الدين لتهدئته . واستكان أخيرا . وتخلص من

الخوف شيئا فشيئا . ظل ساكتا فاغر الفم . ينتظر طعامه . بدا أشبه بضفدع بهذا الأنف الكبير والشفتين الغليظتين والوجنتين المرتجفتين . واللحية .

انحنى جوهر قريبا منه . وبرقة وعذوبة أبوية بدأ في اطعامه . تصرف مع القعيد كأنه طفل صغير . سأله :

ـ لماذا ذهبت . هل اختلفتما ؟

قال القعيد : أجل . ابنة الكلب غيورة . لاتكف عن اختلاق الحكايات .

قال جوهر : اذا كانت غيورة فهي تحبك . احك لي ماذا حدث ؟

ـ حسنا . في هذا المساء . عندما جاءت تأخذني من المدينة . وجدتني أتحدث مع جامعة أعقاب شابة مما أغضبها . وفي كل مرة ترى امرأة قريبة مني . تصيبها الغيرة . ومع ذلك فأنا وفي . وليس لي حول اذا أعجبت النساء بي . يا الهي . لا أعرف ماذا يجذبهن في ؟!

ظل نور الدين مستندا على طرف الباب . أثارت كلمات القعيد انتباهه . هل هذا حدث فعلا ؟ لايمكن أن يصدق هذا الكلام . خاصة فيما يتعلق برجل له هذه الصفات . أحس أن القعيد يبالغ بطريقة سافرة وهو يتكلم عن الجاذبية التى يسببها للنساء وما يثيره هو غياب كل الحركات فيه مما أكسب القعيد صوتا جهورا وقويا . وكأنه صندوق يتكلم . ود نور الدين أن ينفجر ضاحكا . لكنه أحس أن وظيفته تمنعه . فمهما حدث عليه أن يكون جادا . لقد جاء هنا كي يحل لغزا ، ويمكنه أخيرا أن يفهم .

أكل الرجـــل بشراهة . ومن وقت لآخــــر يلقى نظرة على نور الدين . لم يصدق حتى الآن ان ضابط الشرطة فى داره لزيارة حميمية . فاحساسه أنه سيقبض عليه قـد يجعله يتقيأ . ولذا يتوسل الى جوهر أن يسرع . والا يتركه . قال جوهر :

ـ ولا يهمك . سوف تعود بالتأكيد .

قال القعيد : لا . لا أريدها . لتذهب فى داهية . فكفانى ما رأيته منها . ثم انها أكبر منى ســـنا . سوف أجعلها تتحسر وأتزوج مرة أخرى من فتاة بكر .

ابتسم بوقاحة وهو ينظر الى جوهر ويكمل :

ـ ما رأيك ؟

تذكر جوهر المرأة العملاقة . وهنـأه لأنه ســتكون له جارة حلوة قريبا . وقال :

ـ أعتقد انك على حق . فمن الأفضــل ان تتزوج شـــابة صغيرة . فهى ستجعلك سعيدا .

ـ أليس كذلك . فتاة بكر صغيرة . آمل ان تشرفنى فى حفل زفافى . سوف أقيم وليمة عشاء .

قال جوهر : لن تفوتنى . هل تود أن تشرب ؟

ـ أجل . من فضلك . القلة هناك .

وضعت القلة بجوار الحائط خلف جوهر الذى أمسكهـــا وقربها من فم القعيد وجعله يشرب . قال القعيد بعد ان شرب :

ـ شكرا . أنا ممتن لهذا الكرم .

رد جوهر : هذا شرف لى أنا .

ـ يمكنك أن تعتمد على معرفتى . سأكون ســـعيدا وأنا أرد لك الجميل .

قال جوهر : فى خدمتك . فجار مثلك منحة من السماء .

لم يكن تبادل عبارات المجاملة مقنعا لنور الدين الذى أحس انهما يسخران منــه . ود ان يذهب . ويفلت من هذا الجحيم . ولكن شيئا ما أوقفه رغما عنــه . انهما يريدان أن يفسرا له كيف أن هذا القعيد . بقايا الانســـان . يمكنــه أن يثير غيرة امرأة . بالطبع لا . أما جوهر فقد استكمل حديثه مع القعيد وكأنما يتعلق الأمـر بنقاش بالغ الرقى . أحس نـور الدين أنه أمام زوجـين يتبادلان الغزل . انتابته الرغبة أن يحطم كل شىء أمامه . تراجع ببطء فوجد نفسه أمام الســـلم المظلم . ولكن الوقت متأخر كى يهـرب من هذا الفخ الذى دبـره القــدر . عبر الســـلم ودفع باب غرفته .

ـ تفضل يابك .

تردد نور الدين أمام الباب . ثم تقدم فى الظلام كأنه قد قرر ان يدخل هوة سحيقة . توقف لاهثـــا . فقد اصطدم بشىء خشبى . استدار وهو يشعر ان مسكينا سوف يطعنه فى قلبه . أحس أن سمير يختفى حاملا سكينـــا ويود أن يقتله مثلما أبلغــه يوما . وخلال لحظة بلغ فيها اعياؤه حده . سمع جوهر يتحرك فى الظلام . ثم أشعل شمعة أضاءت الغرفة . قال جوهر :

ـ أتريد أن تجلس . معذرة الا أتشرف بهذا . فهذا مسكن فقير . تصرف كأنك فى بيتك .

جلس نور الدين على المقعد ولم يرد . ماذا يعنى هذا الحوار . هل يتصوره غبيا ؟ يتصرف كأنه فى بيته ! لقد بلغت السـخرية

مداها . كاد نور الدين ان يعتقد أن أرواحا خبيثة تسخر منه . انتظر ان يرى قطعة أثاث . أو أى شىء مكسور . لكن لا شىء فى هذا المسكن الغريب . هذا الخواء الغريب أشبه بسراب . بدا له هذا الخواء مشبوها . وهو يجول بعينيه بنظرة قلقة مليئة بالدهشة .

جلس جوهر فوق باقة الجرائد . وأسند ظهره للحائط لايزال يرتدى طربوشه ويمسك عصاه فى يده . الجو بارد ورطب فى الغرفة . زرر نور الدين ياقته . وهز رأسه وقالَ بعد صمت :

ـ كل هذا يبرر السبب يا جوهر أفندى .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أفكر فى هذا الشحاذ . الذى يتصور أن كل النساء يجرين خلفه .

ـ لاتنس سيدى الضابط ان هذا الشحاذ ـ بسبب دخله ـ يعد منجم ذهب . ولهذا تهتم به النساء .

ـ ومع هذا فهو مخلوق بشع .

قال جوهر : لا شىء بشع . خاصة بالنسبة لامرأة . فهذا الرجل يمارس الحب جيدا وأفضل من آخرين . وأؤكد هذا من خلال ما سمعت . صدقتى فقد كانت تاوهات زوجته تؤكد ذلك . وأعتقد ان هذا يكفى لاحداث النشوة .

ـ أية نشوة .

قال جوهر : الا تعرف أن رجلا كهذا يسبب نشوة ؟

ـ تقصد وحشا كهذا .

ـ وحش أفضل منا سيدى الضابط . لأنه يعرف السلام . هل تعتقد أن لحكومة سيطرة على رجل قعيد . ماذا تملك له .

قال نور الدين : تقبض عليه .

ـ على قعيد . لا . لا يمكن لأية حكومة ـ مهما كانت أخلاقياتها ـ أن تفعل هذا .

ـ انت رجل غريب . هل تقرأ كل هذه الصحف ؟

ـ رد جوهر : ليحفظنى الله . اننى استعملهم كحاشية أنام عليها .

لم يفهم نور الدين ماذا تعنى الصحف المفروشة فوق الأرض . فى مسكن ملىء بالفقر . ربما اكثر المساكن فقرا . ينام فوق حاشية . كيف يمكنه أن ينام فوق كومة صحف ؟

ـ الا تقرؤها . أتنام فوق هذه الكومة ؟

ـ أنام هكذا منذ سنوات . هل يدهش هذا سعادتك ؟

ـ كيف وقعت فى هذه المأساة ؟ فمن حديثك . يبدو انك رجل مرموق . رفيع الثقافة . وانك تشغل منصبا حساسا فى المجتمع . ومع هذا تعيش كصعلوك . هناك سر أريد أن أفهمه .

ـ لا يوجد سر . أعيش كصعلوك لأننى أرغب ذلك .

ـ يا الهى . انت غريب . ولا أفهم ظروفك .

ـ الحقيقة سيدى الضابط التى تدهشك ببساطة هى الحياة . الحياة الحقيقية . الطفولة البسيطة . لايوجد غموض هناك فقط أقذار .

- من تقصد بالأقدار ؟

- اذا لم تكن تعرف الأقدار فلا أمل فيك . انه الشيء الوحيد الذى لا نعلمه للآخرين . سيدى الضابط .

أخفض نور الدين رأسه . ووضع يديه على ركبتيه . بدا كأنه يفكر فى مشكلة عويصة . ثم قال :

الأمر أكثر تعقيدا من هذا . فلا يوجد سوى طبيبين وأقدار .

قال جوهر : لا . أرفض هذا المفهوم . لا تقل ان الامر أكثر تعقيدا مما تتصور . كيف لاتفهم ان هذه الأوضاع لايستفيد منها سوى الأقدار ؟

صمت نور الدين . من جديد أحس بالملل يتسرب اليه . هذه الغرفة الخاوية التى تثقل على مشاعره تبدو معزولة عن بقية العالم . تخيل نفسه نائما فوق كومة من أوراق الجرائد . سعيدا هانئا وقد تخلص من كل متاعبه . عن ماذا يبحث عن شيء أكثر راحة للبال من هذا . حقا . لايمكن أن يحدث شيء فى هذه الجدران . فى هذا العدم . جوهر بلا شك على حق . يعيش كصعلوك . وهو عين العقل . حياة بدائية المظهر . بلا متاعب . بلا خوف أو حياء . لقد كان فخورا بهذه الآثام التى اقترفها طيلة سنوات . فليغسل نفسه مما ارتكب فليس لديه ما يخشاه فى احتقاره وأنانيته المفرطة .

لكن ليس من السهل أن يقع تحت طائلة الاغراء . قام من مقعده . وسار فى الغرفة ثم استدار ووقف أمام جوهر . وللحظة أعجب بهدوء وجه مضيفه الذى يشع عن انعكاس ضياء الشمعة .

هذا الرجل ارتكب ـ بلا شك ـ جريمة . ومع هذا فان ملامحه تحتفظ بصفائها . بعيدا عن الخوف والمعاناة . غريب عن العالم الذى يحيطه . انطلقت تنهيدة من صدر نور الدين . أحس انه لم ينضج بعد كى يصل الى هذه السكينة . التى يحسها فى حياته كصعلوك . انه يقع تحت سيطرة تمليها عليه وظيفته . وواجبه يتطلب منه أن ينهى مهمته . لايمكن أن ينسى انه ضابط شرطة عليه احترام القانون . وانه هنا من أجل قتل العاهرة الصغيرة . قال :

- فى الحقيقة . جئت لأسألك بضعة أسئلة .

قال جوهر : وانا أسمعك . يمكنك أن تسأل كما تشاء .

أكمل نور الدين وهو يجلس على المقعد : تتعلق بجريمة القتل فى الماخور .

قال جوهر : أعرف . كنت أنتظر زيارتك . وسوف أرد عليك . سوف أعد لك قهوة معذرة فقد نسيت ان اقدم لك مشروبا .

قال نور الدين : لا أريد شيئا . لاتزعج نفسك من أجلى .

أشعل جوهر الوابور أثناء ذلك وبدأ يعد القهوة . وبينما يشرب من القلة . تأمل نور الدين فى صمت . انه جاد فى أن يعرف . ولكن ضابط الشرطة لم يسأل بعد . يبدو كأنه ضائع فى حلم بعيد . ولهذا سأل جوهر :

- هل تشك فى أحد ؟

قال نور الدين زائغ العينين : بصراحة أنا أشك فيك .

قال جوهر : حســـنا . اهنئك . فانت على حق . لأنى القاتل .

أحس نور الدين بكارثة تسقط على أم راسه من جراء هذا الاعتراف . هز رأسه بينما تتطاوح يده أمام عينيه . كأنه ينكر ويرفض . صاح :

ـ يا للسخرية . هذا عبث طفولى . يا جوهـر أفنـــدى ! صديقك الشاب الكردى قد حذا حذوك . ماذا لكنى . هل تود أيضا اصلاح العالم ؟

قال جوهر : رائع ان تشبهنى بهذا الشاب . الكردى يفكر مثلك . ويعتقد أن الأمر أكثر تعقيدا من هذا .

جهزت القهوة . سكب جوهر حوايـا البراد فى فنجانين . ثم مد أحدهما الى نور الدين .

قال : تحت أمرك . ماذا تود أن تفعل ؟

ـ ليست أمامى فكرة الآن . لايمكن ان أقبض عليك بسبب اعتراف بسيط . تلزمنى قرائن . سوف اتخذ قرارى غدا . يجب ان أسأل شخصا . وسيتوقف كل شيء على هذا الاستجواب .

ثم فجاة . ســمعا أغنية قادمة من الغرفة المجــاورة . يغنى القعيد أغنية مرحة مليئة بالجنون . أرخى نور الدين أذنيه :

بسرعة ياعربجى ، خذنى معاك .

ووديني بيت البنت الحلوة .

ـ انه يغنى .

قال جوهر : ولماذا لايغنى . فلديه كل أسباب السعادة .

ـ بالتأكيد . كنت أحب ان أفهم كل هذا .

رفع نـور الدين الفنجان الى شفتيه وارتشف من القهــوة المريرة . ربما أكثر مرارة من حياته كلها .

كادت الشمس أن تصل الى عنان السماء عندما توقف يحيى مترددا فى الميدان . يعرف أنه سيكون بعد قليل فى قســـم الشرطة . ومع ذلك فهو ليس خائفــا . فهو لايخشى شيئا فى تردده . لقد استولت عليه رغبة عارمة أن يطيل نزهته وسـط الجموع . عليه أن يبدو طبيعيا رغم انه مسطول . يحس بالهدوء وبالصــفاء الروحى . تملؤه فـكرة مواجهــة السلطـات حتى فى أضيق الحدود .

انتظر يحيى أن يأخذ هذا الموقف القــارن . يشـــك أن ضابط الشرطة نور الدين يحمل له نيات سيئة . لكن ماذا يعرف بالضبط ؟ هل يعامله كقاتل . أم يشتبه فى انه يعرف القاتل ؟ على كل فهو يأمل ان يعترف له . انه يعرف الطريقة التى سيلجأ اليها الضابط . سيصبح القهر وسيلة حياة فى مجتمع متحضر . لايمكن لأحد أن يفعل شيئا لسرطان المعدة . ولا ضـــد الرعب الذى يمارســه البشر على الآخرين . نظر يحيى الى قسوة رجال الشرطة بنفس منظوره الى الأمراض المستعصية والى كوارث الطبيعة .

يقع قســم الشرطة فى الجهة المقابلة من الميدان . مبنى من الحجر الأبيض . دور واحد . ذو نوافذ صغيرة مدعومة بحديد . وبدلا من أن يعبر يحيى الشــارع ســار فوق الرصيف الأيسر . الساعة الحادية عشر صباحا والميدان مزدحــم بالعديد من البشر الذين يمارسون مهنا عديدة يحب يحيى كثيرا هذا المنظر . من السهل أن يعى أنه ليس هناك شيء عاجل فرغم ضجيج الترام وأصوات

العربات . وصـــياح الباعة الجائلين . أحس يحيى بأن هذا عالم تقوم فيه الايماءات والكلمات بدور هام . فالمستقبل بعيد عن هذه الجموع التى تتحرك نحو الأبدية . يبدو مزدحما بفرحة عارمـة لايمكن لأى اضطراب أن يغيرها .

فكر يحيى فى المعاناة التى تنتظره . انهـا ليست أول مرة يتم استجوابه فيها . وليست وحشية الشرطة بخافية على أحد . حتى فيما يتعلق بتلك المخالفات الصغيرة المتعلقة بتعاطى المخدرات هذه المرة يختلف الأمر . فهو يتعلق بجريمة قتل . السؤال هو أن يعرف هل سيضربه رجال الشرطة بقوة كالعادة . هل يعاملون من يتعاطى الحشيش مثل المشبوه فى جريمة قتل كى يرغموه على الكلام ؟ يعرف أنه لن ينطق أبدا باسم جوهر . فهذا ليس من سمات الشجاعة او الولاء لصداقته . فما حدث يبـــدو له أمرا عابرا بالمقـارنة للجرائم العديدة التى تقترف فى العـالم . لا . الآن . لا يتعلق الأمر بجوهر . ولكن عليه أن يدين لنور الدين دور الشرطة . فنور الدين شخصية عبثية . وعلى يحيى أن يكشف له حساسية موقفه وعند هذا الحد سوف يكون سعيدا وسيضحك ساخرا .

دخل يحيى القسم ثم عرج على غرفة كبيرة بيضاء الجدران . ليس بها سوى مكتب يجلس خلفه جاويش يقرأ جريدة بطريقـة تثير الضحك . اقترب منه يحيى وأخرج طلب استدعائه وانتظر . كف الجاويش عن القراءة ورفع رأسه :

ـ اذن فهو أنت ؟

تطلع الى يحيى كأنمـا يلقى عليه العديد من التهم . يعـرف يحيى هذه النظرة . فدمامته لا تعجب رجال الشرطة . يحسون فيها

بروح قاتل أثيم . ابتسم ومد للجاويش بالورقة فأخذها وألقى عليها نظرة ثم قال :

ـ انتظر مكانك ولا تتحرك .

قال يحيى : لن أهرب .

داس الجاويش على زر وهو يرقب يحيى بعين حـذرة . على التو ظهر شرطى أشبه بالثور وحياه التحية التقليدية .

ـ تحت أمرك ياجاويش .

ـ خذ هذا الرجل الى حضرة الضابط .

حياه الشرطى من جديد . ثم أشار ليحيى أن يتبعه .

ـ تعـال .

تبع يحيى الشرطى فى ممر ضيق . أحس بارادته تخور وهو يتأمل دليله . لقد وقع بين يدى جلاد الموت . توقف الشرطى أمام باب وطرق . رد صوت من الداخـل . فتح الشرطى الباب ودفع يحيى أمامه .

ـ حضرة الضابط ! قال الجاويش أن آتى بهذا الرجل اليك .

قال نور الدين . حسنا يمكنك أن تذهب .

كان الضابط جالسا خلف مكتبـه . وقد فتح ياقته . وبدا مكفهرا غير حليق اللحية . وكأنه لم ينم طيلة الليل . تشع عيناه بالحرارة . وهما تتطلعان الى يحيى كرجل يعرف سر الحكاية :

ـ تعال . أنا سعيد لرؤياك .

قال يحيى : سلام عليك يا حضرة الضابط .

رد نور الدين : لقد تأخرت . ولهذا السبب وحده تستحق الحبس ثمانية أيام .

ـ آسف يا حضرة الضابط . فليس لدى منبه .

ـ دعك من السخافات . فلست مستعدا للمزاح . الأمر جاد هذه المرة . ولن تخرج حيا من هنا .

ودون ان يستأذن أمسك المقعد . وجلس وهو يقول :

ـ لقد كتبت وصيتى .

سكت نور الدين . حاول أن يتمالك غضبه . فمن أولى كلمات يحيى وهو يبدو ساخرا من هذا الاستجواب . فهؤلاء الناس لا يأخذون الأمر بجدية . ويشعر نور الدين أنه فى أحسن حالاته مع هؤلاء الحفاة مهما كانت الجرائم شديدة . ومع هذا فانه يثير خوفهم . لكن مع هؤلاء المثقفين الذين يسخرون من السلطة .. فانه يتظاهر بأنه حساس . بمعنى انه يؤمن بوجود الحكومة . والخطب التى يلقيها الوزراء . وان هناك ضميرا أعمى فى دساتير العالم المتحضر . وسلوك يحيى وأقرانه يضايقه دائما . يبدو لهم أنه لاتوجد حكومة . فهم ليسوا ضد الحكومة .ولكنهم يتجاهلونها.

ـ لن أتحمل طويلا سخرياتك الغبية . أنت هنا لترد على استجواب يتعلق بجريمة قتل .

ابتسم يحيى بغباء .

ـ أنا فى خدمة سعادتك .

يود أن ينتفض من مقعده يعرف أن كل هذا سوف ينتهى فجأة لأنه لن يقول شيئا . وعبر الستار الحديدى للنافذة المغلقة

الزجاج . رأى حركة الميدان وسمع ضجيج العربات الحية تسير بالخارج . قال الضابط :

ـ حسنا . لنبدأ من الأول . ولكن أحذرك . عليك بالجدية. أريد اجابة محددة . أعرف انك تعلم أشياء كثيرة .

قال يحيى : أنا . حقا ياسيدى الضابط . أنت تشرفنى بهذا.

ـ قل لى . هل كنت فى بيت الست أمينة يوم الجريمة ؟

بدا يحيى يفكر :

ـ كى أقول الحقيقة لحضرتك . فقد كنت نائما .

ـ عندما قتلت أرنبة . أين كنت ؟

ـ قلت انى كنت نائما .

تمالك نور الدين أعصابه . ظل صامتا لحظة . وقد تجهم وجهه . لم يشك أن يحيى يتصنع الغباء .

ـ أنا واثق انك كنت هناك فى هذا اليوم . من قابلت ؟

ـ كنت نائما ياحضرة الضابط .

ـ ألم يأت أحد أثناء نومك ؟

ـ كيف تريدنى أن أعرف . طالما كنت نائما .

ـ يا الهى . هل كنت نائما طيلة الوقت يا ابن الكلب .

قال يحيى : معذرة يا حضرة الضابط . لم أكن أعرف أن النوم عملية غير قانونية .

ـ حسنا . سوف أوقظك .

أحس نور الدين بالتشتت • فهذا الغباء قد تجاوز حدوده • كان هذا الملعون نائما • لعله تعاطى حشيشا قبل أن يأتى • يعرف أنه قادر أن يتخلص من هذا الموقف أو ان يسير فيه حتى النهاية •

ـ سأمهلك خمس دقائق لتفكر • وبعد ذلك سأجبرك على الكلام •

رد يحيى أنه كان نائما • وعندما لم يطرح الضابط أسئلة سكت • بدأت الدقائق الخمس فبدأ يفكر فى أشياء تافهة •

نظر نور الدين الى ساعته • ثم جلس فى مقعده وانتظر • لقد استغرق هذا التحقيق وقتا طويلا • ولن يصبح أهلا لثقة السلطات العليا • يعرف أن يحيى لن يتكلم • حتى لو عذبوه • وسيحتفظ بسره • هذا الموقف يؤذى شخصه • انه بادى القلق • يعلم نور الدين أن يحيى يعرف القاتل • لماذا يسكت ؟ فالقاتل لايمكنه أن يدفع له كى يسكت • والجريمة ليس لها دافع • وليست مسألة شرف • لقد تحرى نور الدين ماضى يحيى ليعرف أن هذا الأخير لم يكن مشبوها يوما •

سأله :

ـ ألست خائفا من الضرب ؟

رد يحيى : أبدا •

ـ مستحيل •

ـ ليس الضرب سوى حدث فى حياة رجل مثلى ياسيدى • أمر عادى •

ـ انت رجل بلا كرامة •

ضحك يحيى وقال •

ـ أنت تذكرنى بأمى • كانت تقول لى دائما أن أبى رجل شريف • اما أنا فعار على الأسرة •

ـ أليس لديك أى احساس • الا تحس بشىء •

ـ نعم يا حضرة • الآن أشعر بدهشة عظيمة •

ـ أى نوع من الدهشة ؟

ـ أدهش من رجل مثلك يقضى وقته فى ممارسة ألعاب رائعة كهذه •

ـ فيم تودنى أن أقضى وقتى ؟

رد يحيى : فى التنزه •

أحس نور الدين بالغيظ • فقال •

ـ ليس لى الآن حول • ذنبك على جنبك •

فتح الباب فدخل منه شرطيان • نظرا الى يحيى وهما يقتربان منه ببطء •

ـ ستتكلم الآن •

لم يرد يحيى • أشار نور الدين الى الشرطيين • مر أحدهما وراء يحيى بينما أمسكه الأول من الأمام وبدأ فى ضربه •

نظر يحيى الى ما يحدث كأنما الأمر لايعنيه • تساءل عما اذا كان الضابط يلعب دورا رائعا بالنسبة لهم • فهذا شىء رائع •

فهؤلاء الناس يتسلون بطريقتهم . وهـو لا يكن لهم أى ازدراء أو كراهية ، أحس بالهدوء . وأغلق عينيه .

لفت الضربة الأولى رأسه . أحس بألم غريب اعتـدل بعد الضربة الثانية . ثم توالت الضربات . ازداد الألم الى حد لايستطيع احتماله . وجد نفسه غارقا فى جحيم أسود ملىء بنور البرق . وهو يسمع نور الدين يسأله :

ـ هل ستتكلم يا ابن الكلب ؟

وفجأة . وسـط ارتطـام رأسه . سمع ضجة من بعيد . ذكرته بشىء وما حاول ان يعرفه . أجل . انها مدافع أذان الظهر . فتح عينيه وصاح .

ـ انه الأذان يا سادة .

رفع الضابط ذراعه كى يضربه . توقف مندهشا . سأله :

ـ هـا .. ؟

قال يحيى بصوت ضعيف : أعتقد ان سـاعة الأكل حانت . فانا جوعان .

أخفى نور الدين رأسـه بين يديه . وأراد أن يصرخ . صـاح :

ـ ألقوه فى الخارج لا أريد أن أراه .

امسك الشرطيان يحيى ودفعـاه خارجـا . بقى نور الدين وحيدا . وقد شعر بالتوهان . ثم تذكر ان الظهر قد حان وعليه ان يذهب لتناول الغذاء .

وعندما خرج نور الدين من قسم الشرطة . كان قد أدرك ان جوهر هو القاتل الحقيقى . ولكن ماذا يهمه الآن . لقد قرر ان يقدم استقالته ويعيش حياته كصعلوك . صعلوك أمر سهل . ولكنه سيد متكابر . أين يجد الكبرياء . ؟ لايوجد أمامه سوى ملل لاينتهى . وحاجة كبيرة للسلام . للسلام وحده .